

كتاب الأهلالي  
رقم ٢٤

د. فؤاد زكريا



1.25  
الكتاب

مقاومة التاريخ الكبرى

على ماذا يراهن هورباثوف؟



## **كتاب الأهالي**

---

رقم ٢٤ / أبريل ١٩٩٠

رئيس مجلس الإدارة

لطفى واكد

رئيس التحرير

صلاح عيسى

اما وقد صممت مدافع الامة عن الدفاع . وحول العدو  
نيران مدافعه الى جبهة الوعي والانتماء فقد كان لابد وان  
يصدر كتاب الامل ليكون بعض جهدنا المتواضع في المعركة  
التي تدور على جبهة العقل ليساهم في اعادة بناء الجسور  
المنهارة بين الطليعة والشعب وبين المواطن والوطن وبين  
الوطن والامة وبين هؤلاء جميعا والكون الذي نعيش فيه  
ولاننا نعيش في عصر ثورة الاتصالات الذي يؤدي تدفق  
معلوماته الى تشوش في اليقين فان حاجتنا الى العودة للتبشير  
بالبديهيات واعادة احياء الذاكرة الوطنية لا تقل عن حاجتنا  
الى التعمق الذي يحيى اليقين لا الذي يشوش عليه .  
واذا كان منطق الحركة السياسية اليومية يحتمل المساومة  
والوسطية فان جوهر دور اليسار على صعيد الوعي والانتماء  
هو الهدم والبناء ذلك ان الامر هنا امر تكوين وتأسيس  
يتجاوز ضرورات الحاضر وقيوده الى افاق المستقبل واحلامه .

## مجلس التحرير

د . إبراهيم سعد الدين

أبو سيف يوسف

حسين عبد الرازق

د . عبد العظيم أنيس

عبد الغفار شكر

محمد أحمد خلف الله

---

كتاب الأهالي سلسلة كتب تصدرها جريدة الأهالي

---

لسان حال حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى

الآراء الواردة في كتب السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأى التجمع

---

للمراسلات ٢٣ شارع عبد الحالى ثروت - القاهرة



كتاب الأملاني  
قسم ٢٤

د. فؤاد زكريا



مقاومة التاريخ الكبرى

على ماذا يراهن هورباتسوف؟





## الفصل الأول

# المقدمات

لا اظن ان التنبؤ بالمسار الذي سيتخذه التاريخ ، حتى على المدى القريب ، كان في وقت من الاوقات أصعب مما هو في اللحظة الزاهنة . اقول هذا وأنا على وعي تام بأن الاساليب العلمية لتكوين صورة منقولة عن الاوضاع المستقبلية قد تقدمت في الآونة الاخيرة تقدماً هائلاً ، حتى أصبح هناك علم قائم بذاته ، هو «المستقبليات» له اساتذته المتخصصون ودورياته العلمية ومعاهده ومؤتمرات ، ويستعين بأحدث طرق البحث وأبق الحاسبات الالكترونية. ومع ذلك فإن التحول الذي طرأ على العالم في الربع الاخير من العام الذي ودعناه أخيراً قد خرج بحدة عن كل توقع، وتغز بعنف خارج كل إطار كان يوضع فيه المسار المحتمل للتاريخ، وأغلب الظن أن الصورة التي سيذكرها المؤرخون عن عقد الثمانينات بأكمله سيكون أغلبها مستعداً مما حدث في الأشهر الثلاثة الاخيرة من عامه الاخير، كما أن أحداث عقد التسعينات سوف تتحدد، الى مدى بعيد ، بما حدث في هذه الأشهر الثلاثة العاسمة.

إن التاريخ ، الذي كان يبدو في نظر إنسان النصف الثاني من القرن العشرين مستأنساً طبعاً ، يمكن حساب العوامل المحركة في تحولاته ، واستشفاف مساراته المقلية بقدر معقول من الدقة، يبدو اليوم، ونحن نستهل العقد الاخير من هذا القرن العجيب، أشبه

بالحصان البري الجامح ، في لغزاته العشوائية وانطلاقات المفاجئة واستعصائه على لجام العقل.

لقد تنبه الكثيرون في الشرق والغرب، بعد التقلبات الاخيرة الصاخبة، الى التشابه الواضح بين عام ١٧٨٩، عام الثورة الفرنسية، وعام ١٩٨٩، عام الثورة في المعسكر الاشتراكي، ووجدوا في كل من العامين مفتوق طرق حاسما في تاريخ البشرية، ولكن هل خطر هذا التشابه ببال أحد ممن سجلوا على صفحات جرائد العام كله توقعاتهم عن العام الجديد ، عند نهاية عام ١٩٨٨ ؟ وهل طاف هذا التشابه بذهن أحد في الوقت الذي كان فيه العالم يحتفل مع فرنسا، بمرور مائتي عام على ثورتها في شهر يوليو «تموز» الماضي؟ هل توقع أحد خلال هذه الاحتفالات التي لم يعض عليها سوى خمسة اشهر ، أن تصبح للعالم خلال الشهور التالية صدمة مختلفة تماما عن تلك التي اعتدناها، وبيننا عليها جميع تحايلاتها وتوقعاتها خلال السنوات الاربعين الماضية؟ وهل تخيل أحد ممن عرضت عليهم شاشات التلفزيون صورة تشاوشيسكو في نوفمبر الماضي، وهو يخطب في اجتماعه الحزبي الأخير ، فيرفض في سلف وغرور وعناد كل التغييرات التي اجتاحت أوروبا الشرقية، ويستقبله ألوف المناصرين (من يزعمون انهم مثلكم الشعب) بالتصفيق الحار عند كل مقطع في خطابه، والوقوف إجلالا عند ذكره وخروجه - أقول هل تخيل أحد عندئذ أن هذا الزعيم الجبار سيحس في الرجل، مع نظامه كله، ممزقا بالرماس بعد أقل من أسبوعين في أعقاب ثورة شعبية بطانية ضمت بالكثير من أجل إزاحة الدنية في زمن قيامه؟

كذا يزود التاريخ، في أيامنا القليلة هذه ، أشبه بنهر مثل يسير في مجرى عادته ، ثم تدفق فجأة الى شلال هائل يعم الاذان ، ولا يملك كل من يف يتأمل جبر التدفق الصاخب بعد هذه طول، إلا أن يوقن بأن - براه لن يعود أبدا، بعد هذا الشلال ، مثلما كان.

إن الحيرة هي السمة المميزة لكل محاولات التحليل التي تُقدّم للوضع الراهن في العالم بعد الاحداث العاتية التي عصفت بنظامه المستقر منذ أربعين عاما. ونحن يكتب أعقل العقلاء عن هذا الوضع العالمي الجديد، فإنه لا يستبعد احتمال حدوث شيء يقلب تحليلاته وتفسيراته رأسا على عقب في اليوم التالي لظهور مقاله. لقد حلت المفاجآت محل التوقعات ، والحدس محل التنبؤات ، وانعدمت الرؤية حتى أمام من يملكون أعظم

المعلومات وأدق أدوات التحليل.

ولكن، في قلب هذا التحول الخاطف الصاخب يقف رجل واحد في العالم لا يبدو عليه أي قدر من القلق إزاء ما يحدث، بل إن خصومه، الذين تبدو التغيرات وكثرتها تسير في صالحهم، هم الذين يبذلون جهودا هائلة من أجل إخفاء توترهم وقلقهم . هذا الرجل هو ميخائيل جورباتشوف الذي أسهم في تغيير عالمنا بأكثر مما أسهم به أي فرد آخر في التاريخ المعاصر. وعلى الرغم من أن المثقفين في جيلنا قد اعتادوا ألا يبالغوا في تضخيم دور الفرد في التاريخ، وظلوا يؤكدون دائما أن الصانع الحقيقي للتحولات الكبرى في مجرى العالم هو الجماهير، والقوانين الموضوعية التي تحكم تحركاتهم، وأن أي فرد مهما كانت مكانته لا يعدو أن يكون محصلة العوامل الاجتماعية الكبرى التي تتحكم في مسار التاريخ. على الرغم من هذا كله، فإن المرء لا يملك إلا أن يربط بين الثورة التاريخية الكبرى التي تعيش الآن أهم مراحلها، وبين شخص جورباتشوف على وجه التحديد، سواء نظرنا إليه على أنه فرد عبقري، أم على أنه تجسيد لقوى تاريخية أوسع نطاقا وأعمق تأصلا منه.

وليس أدل على ذلك من تلك المفارقة الغريبة التي تلمسها في تقييم خصومه له: فالد أعدائه، في أميركا وإنجلترا مثلا، يكيلون له المديح ويتفنون بحكمته وشجاعته ، في نفس الوقت الذي يؤكدون فيه أنه هو الخاسر الأكبر، وأن النظام الذي ينتمى إليه قد أنهار، وأن شعوبه قد اختارت التحول إلى النظام البديل.

ومعنى ذلك أن الإنسان المعاصر، سواء أكان ممن يعترفون بأن التحولات التاريخية في المعسكر الاشتراكي هي تحولات إيجابية، أو كان ممن يرون أنها تمثل النهاية العتمة لهذا المعسكر ولكل المعركة الأيديولوجية بين الرأسمالية والشيوعية ، يؤكد في العاليتين أن هذا الرجل بعينه هو الذي يلعب دور البطولة على مسرح الأحداث العاصمة في عالم اليوم. ولكن السؤال الهام، والعاسم، يظل قائما: فإذا كان العالم كله يعترف لجورباتشوف بالفضل الأكبر- وربما الأوحد- في إدارة عجلة التاريخ نحو هذا المنطق العاسم، فهل كان دوره يقتصر على البدء في تحريك الأحداث ، والسماح للتطورات بأن تسير في مجراها بحرية، دون تدخل من الدبابات السوفياتية التي منعت من قبل تحولات كثيرة داخل المعسكر الشيوعي ، أم أن المسار الذي تتخذه

الاحداث، بعد هذه البداية العاصفة، هو أيضا من صنعها؟ هل كان جورياتشوف، مثل إله أرسطو، هو المحرك الاول للاحداث، ثم سارت هذه الاحداث بعد ذلك في طريقها الخاص دون تدخل منه، وأملت زمامها من بين يديه، أم أنه، بعد أن أعطى إشارة الانطلاق الاولى، ما زال معسكا بالدفعة؟

إن العالم كله يعترف لجورياتشوف بالامر الاول، أعنى البدء في تحريك الاحداث التي أدت الى تحول حاسم في التاريخ المعاصر، أما الامر الثاني، أعنى مدى تحكمه في المسار اللاحق لهذا التحول، فهو مدار خلاف كبير، من أصعب الامور في اللحظة الراهنة، التي ترتفع فيها حرارة الاحداث الى درجة الثليان، أن يتخذ المراء موقفا بين هذا الرأي وذاك، لان وضوح الرؤية يحتاج الى وقت حتى ينتفخ ضباب الثقلبات العنيفة والمفاجئة.

ومع ذلك فان الرأي الذي أدافع عنه، بقدر ما تسمح لي الاحداث الراهنة بالحكم، هو أن جورياتشوف يقوم بمقامرة من أكبر مقامرات التاريخ، وفي كل مقامرة مقامرة، ولكن هل هي مقامرة محسوبة، أم انها متروكة للظروف؟ في اعتقادي أن جورياتشوف قد خاض هذه المقامرة بعد أن أجرى حسابات فيها قدر كبير من الدقة، ولكن لما كانت حركة التاريخ أعتد كثيرا من تلك الارقام التي تحملها الازحاج الستة المكعب النرد «الزهر»، فعن المتوقع أن تخطئ تلك الحسابات في كثير من التفاصيل، ومع ذلك فان ما أتصور أن جورياتشوف توقعه حين خاض هذه المقامرة بوعي كامل هو أنه سيبدو خاسرا على المدى القصير، ثم يبدأ تراكم المكاسب على المدى الأطوال، هذه هي حساباته، كما أتصورها وإن كان احتمال الخطأ فيها يظل واردا على الدوام.

وفي اعتقادي أن معظم الاخطاء التي ترتكب في محاولة فهم الوضع الراهن لعالمنا المضطرب، بعد سلسلة الاحداث المفاجئة الاخيرة، ترجع الى أن المفكرين والمحللين ينظرون الى الاحداث التي تدور في اللحظة الراهنة كما لو كانت هي التي ستظل قائمة في المدى البعيد، وهذا ينطبق على مؤيدي جورياتشوف ومعارضيه على حد سواء، فعرضونه يقفون مشدوعين وهم يرونه يتامل بدهوه انهيار امبراطورية المعسكر الاشتراكي من حوله، ويعربون عن أسفهم لاختفاء معسكر قوي كان على الاقل يشكل توازنا مع المعسكر الرأسمالي الاشد عنوانية، وكثير منهم يمتنون في قرارة أنفسهم لو كان جورياتشوف أكثر حزما، ولو

أحكم قبضته بدرجة معينة حتى لا يفك منه زمام الأمور . بل أن بعض أنصار الاشتراكية المتحمسين يصل بهم الأمر الى حد اتهامه ، سراً في معظم الأحيان ، وعلناً في أحيان قليلة ، بالخيانة والعمالة للرأسمالية العالمية ، ورائته هو الزعيم الذي أخذ على عاتقه مهمة تصفية المعسكر الذي ينتسب إليه . أما خصومه فإنهم لا يخفون مساعدتهم لأن شعوب المعسكر الشيوعي قد انقلبت عليه ، واختارت طريق الرأسمالية ، فما يحدث الآن هو في نظرهم نهاية القصوة بين المعسكرين والتضاد بين الأيديولوجيين ، لا من أجل تحقيق الوفاق بينهما ، بل لصالح أحدهما وعلى حساب الآخر ، وهم يؤكدون أن النتيجة الواضحة للتحول العاسم في عام ١٩٨٩ هي الانتصار النهائي للرأسمالية ، وأن الأحداث قد أثبتت بصورة لا تقبل الجدل أن الرأسمالية هي «النظام الطبيعي» للمجتمع الانساني ، أما الشيوعية فهي عرض زائل أو «موضة» مزعجة ظلت مسيطرة بقوة الحديد والنار في مجتمعات معينة خلال بضعة عقود من السنين ، لا تعد بمقياس التاريخ البشري شيئاً يذكر ، ولكن كان لابد لهذه الأيديولوجية الفاشدة أن تنتهي يوماً ما ، وما هي ذي الأحداث تعلن الفلاسها بصوت مدو ، لكى يعود البشر جميعاً ، دون تقوية بين معسكر وآخر ، الى «نظامهم الطبيعي» .

هذه كلها ، في رأيي ، تحليلات متسارعة ، قصيرة النظر ، والمشكلة فيها كلها ، سواء تلك التي يقوم بها أنصار جورباتشوف أم خصومه ، هي أنها تنظر الى الوضع الراهن على أنه الوضع النهائي ، وتحكم على المسار البعيد للتاريخ من خلال ما يجري في المدى القصير ، وفي اعتقادي ان العتصر المحسوب في تلك المقامرة الكبرى التي قام بها جورباتشوف ، هو أن ثمارها لن تظهر الا بعد فترة غير قصيرة من الصدمات والخسائر ، ومن ثم فإن من يصدر حكماً على التهجرية ينبغي عليه ألا يتخذ بتلك السلبيات الضخمة التي تقفز على السطح في المرحلة الاولى من تلك التحويلات .

أن جورباتشوف يراهن رهانا كبيراً شديد الخطورة ، ولكنه ليس رهانا على أرقام مجردة تتساوى جميعاً في احتمال ظهورها أو عدم ظهورها ، وإنما هو رهان على الطبيعة البشرية ، وعلى الاهداف التي ينبغي أن يسعى الانسان الى تحقيقها في المرحلة العاسمة من تاريخه ، فلابد في نهاية الأمر من أن يثور هذا الانسان على القمع والاضطهاد وحشر المتشابه والمختلف في قالب واحد ، ولكنه لابد أيضاً أن يثور

على الظلم الاجتماعى الصارخ والتفاوت العاد بين الطبقات والتسلح المهدد لاستمرار الحياة والتهديد المميت للبيئة التي ستعيش فيها أجيال الاولاد والاحفاد. على هذه الامور جميعا يراهن جورباتشوف، ولا بد لكى يكسب هذا الرهان على المدى الطويل من أن يفسر قليلا أو كثيرا على المدى القصير.

ولكى أدلل على صحة هذا الافتراض الذي أحاول به أن أجعل هذا الموقف المعقد والمتقلب مفهوما بدرجة ما، وأن أضفى شيئا من المعقولة على أوضاع تبدو خارجة عن سيطرة كل عقل، دعونا تطرح سؤالا لم يطرحه أحد من قبله، ربما لأنه يبدو سؤالا شديد السذاجة، مع أنه ينطوى فى رأى على كثير من مفاتيح اللغز: فما الذي أرغم جورباتشوف على أن يفعل ما فعل؟ لقد انتخب جورباتشوف رئيسا بعد تشيرينينكو، الذي كان ميتا حيا، وظل طوال حكمه القصير راقدا على فراش المرض. وتشيرينينكو جاء بعد أندريوف، الذي كان بدوره يحمل منذ البداية بذور داء قاتل أودى بحياته بعد وقت قصير، كذلك فإن أندريوف جاء بعد بريجنيف، الذي كان فى السنوات الاخيرة من حكمه جثة تتظاهر بلثا حية، وكان واضحا أن قواء البنية والذهنية لا تسمح له بأن يدير مزعة اللواجن، لا معسكرا عالميا عظيم القوة قادح المسؤوليات.

جاء جورباتشوف الى الحكم شابا فى الرابعة والخمسين «بالقياس الى الموتى الاحياء الذين سبقوه»، وكان يكفيه أن يعطى الحكم مزيدا من الحيوية، ويسير فى الخط الذى انتهجه سابقوه بهمة أعظم، ونشاط أكبر، حتى يكون قد أنجز شيئا هاما يميزه بوضوح عن أسلافه. ولكنه لم يقبل ذلك. وإنما اختار عمدا أن يسير فى طريق مختلف «نوعيا» عن ذلك الذي سار فيه أي زعيم سوفياتى آخر منذ لينين.

وإن كان جورباتشوف قد سار على درب أسلافه، مع إعطاء الحكم مزيدا من الحيوية والشباب، لما تعرض لشر من المتاعب التي تعصف الآن بالمعسكر الشرقى. واعتقد أنه كان يستطيع - نظريا - أن يفعل ذلك. فكل ما يقال الآن عن أن هذا التغيير الذى أحدثه جورباتشوف كان حتميا بسبب المتاعب الاقتصادية الهائلة التى تواجهها الكتلة الشرقية، أو حاجة شعوب هذه الكتلة الى الحرية - كل هذا، وإن كان صحيحا كل الصحة، لا يكفى لتفسير ما حدث، فقد ظلت هذه الشعوب محرومة من التعددية ومن حرية التعبير وحرية السفر والتنقل أكثر من

أربعين عاما، ورغم ذلك فقد استطاع النظام أن يستمر، وحتى كانت تقوم فيها انتفاضات شعبية، كما حدث في المجر عام ١٩٥٦ وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، كانت الدبابات السوفياتية تتكفل بسحق كل صوت معارض. وكذلك كانت المتاعب الاقتصادية واضحة منذ زمن طويل، ومع ذلك ظل النظام متماسكا أمام العالم، وكان بفضل لونه العسكرية يؤلف معسكرا جبارا يعمل له خصومه ألف حساب.

أجل، كان في استطاعة جورباتشوف أن يكون امتدادا أكثر شبابا وحيوية، لعهد بريجنيف، ومهما واجه من متاعب فإنها إن تكون أسوأ من تلك التي استطاع المعسكر كله تحملها طوال ستة عشر عاما من «عصر الجمود». وكان في استطاعته، باستخدام أساليب القوة والتمويه السائدة من قبله، أن يسير في طريق مأمون، ويجنب نفسه كل ما يتعرض له الآن من مشكلات. ولكنه لم يفعل، واختار عامدا السير في طريق التغيير الجذري، بكل ما ينطوي عليه من مخاطر جسيمة.

بل أنه خطط بدقة وأحكام لهذا التغيير الذي تعدد أحداثه، ونظم خطواته بطريقة عقلانية: فبدأ بسياسة «الجلاسنوست»، أي العلانية أو المصارحة أو المكاشفة، ولأول مرة وجد الإنسان، في الدولة الأم داخل المعسكر الاشتراكي، أن في استطاعته التعبير بحرية تامة هنا يعانية من متاعب، ويوجه الانتقادات العادة الى المسؤولين عن هذه المعاناة. دون أن يلحقه أذى أو ينفى الى أقصى الأرض. وكانت تلك هي الخطوة الأولى، والمنطقية، نحو التحول الاساسي، وفي التي هيأت الجو عقيلا وتفسيا لخطوات أخرى تهز الاسس التي قام عليها المجتمع. وكان من الطبيعي أن تمتد الخطوة الأولى لفترة طويلة، تزيد عن ثلاث سنوات، إذ أن هذا هو ما تقتضيه التهيئة الذهنية للعلايين من البشر، من أجل إزالة آثار عشرات السنين من الخوف من توجيه النقد، والجمود إزاء التغيير، والسلبية التامة في مواجهة صناع القرار.

وكانت المرحلة التالية، والحاسمة، هي إعطاء الضوء الأخضر للتغيير في كل بلد يترده من بلدان المعسكر الاشتراكي: فقد أخذ يلوح الى عدم رضائه عن القيادات الجامدة، ويشير بعبارات واضحة الى أن القوات السوفياتية لن تتدخل في أية أحداث تقع داخل هذا المعسكر. وسرعان ما انتقلت شعوب هذه الكتلة، التي كانت من الأصل معبأة، إشارات الواضحة، وبدأت الاصنام الجامدة فيها تنهار واحدا بعد الآخر، فتمهم من انسحب في هدوء، ومنهم من نحي عن منصبة بعد اجماع

شعبي تجلى في مظاهرات عارمة، وآخرهم (حتى كتابة هذه السطور) اثر المكابرة، ولم يتزعزع من موقعه إلا بعد أن سلب على أهله زبانية الشر الذين كان «يدخرهم ليوم مطير»، كما يقول التغيير الاميركي الشائع، فكانت نهايته بنفس القسوة والدموية التي مارستها تجاه شعبه

كانت حركة التغيير الهائلة في المعسكر الاشتراكي اذن متعددة، وكان في استطاعة جورباتشوف أن يحتلظ بالأوضاع الهامدة السابقة، مدة أطول بكثير، ولكنه اثر أن يخوض مقاومة التحول الحاسم. ومع ذلك فان قوى التغيير حالما تتطلق من عقابها بعد طول احتباس ، يمكن أن تخرج عن السيطرة، وتتخذ مسارات غير محسوبة. فهل أفلت المارد من القيد، وانقلب على من فتح له قوة الزجاجة؟ وهل يسير تداعي الاحداث بشكل طليق وبصورة غير منضبطة منذ اللحظة التي أضاء فيها جورباتشوف الضوء الأخضر أمام قوى التغيير؟

ان الاجابة من هذه التساؤلات بالإيجاب أو السلب تكاد تكون مستحيلة في اللحظة الراهنة، ولكن الامر المؤكد هو أن جورباتشوف قام بمقاومة تاريخية كبرى، كانت له فيها حساباته الذكية بعيدة النظر، ولكن احتمالات الضسارة واردة في كل مقاومة، مهما كانت بقية الحساب فيها، لاسيما وأن أعداده يعملون بكل طاقاتهم من أجل إفساد هذه الحسابات. وكل ما يستطيع الكاتب أن يفعله، في مرحلة الاحداث الساخنة التي نمر بها الان، هو أن يحلل مختلف عناصر الموقف، ويقدر احتمالاته الممكنة، كيما يساعد القارئ على فهم الاحداث المتلاحقة بصورة أعمق، ويترك له مهمة استخلاص النتائج بنفسه.

وهذا يعني هو ما سنحاول القيام به في الفصل التالي: فلا بد من البدء بتقديم تفسير للتغييرات الحاسمة التي وقعت بالفعل، يليه محاولة ليبحث تأثير هذه التغييرات بالنسبة الى مستقبل العالم الاشتراكي، والعالم الرأسمالي، والعالم الثالث، مع التركيز على الوطن العربي بوجه خاص. وأخيرا تأتي أصعب المحاولات واعتدما، وهي المخاطرة باستخلاص مجموعة من التوقعات عن شكل العالم في عقد التسعينات، بعد أن تكون تلك التغييرات قد أخذت مداها ، وأصبحت حقائق راسخة في عالم القد.



## لعنة التسليح

قلت في الفصل السابق أن جورباتشوف كان يستطيع ، من الوجهة النظرية ، أن يحافظ على الأوضاع التي ظلت سائدة في الكتلة الشرقية منذ الخمسينات ، وفي بلاده قبل ذلك ، وأن أية صعوبات كانت تواجه أنظمة تلك البلاد في المرحلة التي سبقت ثورته التاريخية مباشرة ، ما كانت لتتجاوز ما سبق أن مرت به من مشاكل طوال العقود السابقة . ولكن هذا الفرض النظري يعني تجميد الأوضاع الي مالا نهاية ، ويعنى الحكم على النظام الاشتراكي كله بالتحجر في وقت تحتاج فيه العالم ثورة علمية وتكنولوجية ستتقل به خلال القرن القادم الى انماط من الحياة تبدو معها أنماطنا الحالية عتيقة ، وربما بدائية . ومن المؤكد أن عملية اختيار جورباتشوف زعيما للاتحاد السوفيتي كانت منذ البدء دليلا على قوة ارادة التغيير في هذا البلد الكبير ، فمن المرجح ، إن لم تقع مفاجأة ، أن يكون هذا الرجل نفسه ، أو واحد ممن يسيرون على نهجه ، هو الذي يقود بلاده عند مطلع القرن الحادي والعشرين . وهكذا ، اختيار الرجل على أساس أن مهمته هي العبور إلى المستقبل ، ولابد أن الذين اختاروه كانوا على وعي بأن أوان التغيير قد آن ، وبأن هناك ظروفًا هي التي تحتم هذا التحول الحاسم .

ويمكن القول انن أن جورباتشوف، قد جاء الى السلطة وهو يحمل تفويضا بإحداث تحول هام في أسلوب الحكم . غير أن الرجل تجاوز هذا التفويض بمراحل ، وكان العامل الرئيسي الذي ساعده على ذلك أن لديه رؤية كونية شاملة ، فالتغيير في نظره يبدأ أولا من الداخل ، من بلاده ذاتها ، ثم ينتقل الى بقية البلاد الاشتراكية ، وبعد ذلك تمتد اشعاعاته حتما الى العالم الغربي الرأسمالي ، وعن ثم الى العالم الثالث . وسواء تمكن جورباتشوف من تجسيد رؤيته هذه في عالم الواقع ، أم أخفق في ذلك لسبب أو آخر ، فإن الدلائل كلها تشير الى أن البشرية لن تستطيع أن تشرق طريقها بامان في القرن القادم إلا إذا تمكنت من وضع نظام جديد للعلاقات بين الدول ، يرتكز على تحقيق توازن بين قدرة الانسان على التحكم في تصوراته ، وضبط علاقاته مع الآخرين بطريقة حضارية ( وهي حاليا قدرة متخلفة الى حد بعيد ) ، وبين قدرته على التحكم في الطبيعة المادية وتسخيرها لخدمة أغراضه ( وهي حاليا قدرة متقدمة الى حد هائل ) .

لما هي انن تلك الاسباب التي جعلت هذه الرؤية الجديدة ضرورية ملحة ؟ وما العوامل التي دفعت جورباتشوف الى تلك المقامرة الكبرى التي اذلت الخصوم قبل الاصقاع ، والتي قلبت جميع الحسابات التقليدية ، على صعيد السياسات المحلية والعالمية . رأسا على عقب ؟ لتبدأ أولا بأهم الاسباب وأهمها ، وأعلى به الحاجة الملحة الى إنهاء سباق التسلح . فقد فرض هذا السباق الشيطاني على العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، مع أن ميثاق الأمم المتحدة الذي أعلن في نهاية تلك الحرب كان يشير بوضوح الى هدف إنهاء كافة الحروب وإقامة العلاقات بين الدول على أساس السلام الدائم . ولكن الحرب الباردة سرعان ما ابتكرت صيغة أخرى في العلاقات الدولية . وخاصة بين العسكريين الكبارين ، هي علاقة الخوف المتبادل ، والردع المتبادل : أي أن كلا منها يرهب الآخر ويمتنع من مهاجمته عن طريق تهديده بالدمار الشامل ، فتكون النتيجة استمرار السلام ، ولكنه سلام متوتر يهدد في أي لحظة بالانفجار .

ولكي تكون موضوعين لننقل أن صاحب المصلحة في هذا الطابع الذي اتخذته الحرب الباردة كان الولايات المتحدة وليس الاتحاد السوفياتي . غير أن السوفيات لم يكن في استطاعتهم أن يقفوا مكتوفى الأيدي ازاء التصعيد الأميركي للتسلح ، فاندمجوا في اللعبة

على الرغم من الاضرار الفادحة التي الحلقها بهم التسليح المكثف .  
وكان السياسى الوحيد الذي قرر أن يوقف هذه اللعبة بتخطيط بارع هو  
جورباتشوف.

وليسمح لي القارئ بأن اورد اقتباسين مطولين من مقال كنت قد  
كتبتة منذ خمس سنوات (مجلة العربي- يناير ١٩٨٥) بعنوان  
«ايدولوجية التسليح». وسيدرك القارئ بسهولة سبب هذا الاقتباس حين  
ينتهى من قراءته:

«أن النظام الرأسمالى يستطيع أن يتحمل دون عناء التسليح ونفقاته

الباهظة، بل ان انتاج السلاح وتطويره وتجديده المستمر من أهم  
العوامل التى تساعد على استمرار هذا النظام في الحياة وازدهار  
اقتصاده وتشغيل مصانعه وإيجاد فرص عمل للعاطلين فيه. وأما النظام  
الاشتراكى فإن التسليح بالنسبة اليه عبء ثقل يؤثر تأثيرا واضحا في  
مستوى نموه. وذلك لأن السلاح في هذه الحالة لا تنتجه شركة تحقق  
أرباحا هائلة من بيعه أو تصديره، وإنما تنتجه الدولة التى تخطط  
اقتصادها بحيث يؤدي التوسع الزائد في أي ميدان الى التضيق في  
الميادين الأخرى. وهكذا فإن انتاج أسلحة باهظة التكاليف، في المجتمع  
الاشتراكي، لابد ان تقطع نفقاته من قوت الناس ومن ملابسهم ومسكنهم  
وسائر الخدمات التي تقدم اليهم.. ان التطوير المستمر للأسلحة يحدث  
أولا في البلاد الرأسمالية. والقنبلة الذرية، ثم الهيدروجينية ،  
والطائرات الأسرع من الصوت، كل ذلك بدأت به بلاد رأسمالية.. هذا  
التطوير المستمر لايعنى فقط مزيدا من الروح العدوانية لدى مبتكريه،  
بل انه موجه في الأساس نحو الخصوم، والهدف الاساسى منه- في  
رأى- ليس عسكريا فحسب، وإنما هو أيضا ايدىولوجى واقتصادي.  
فقد أصبح التوازن الدولي يحتم على كل من القوتين العظميين أن تلحق  
بالأخرى في قدراتها العسكرية. وكل تصعيد في مستوى التسليح ونفقاته  
يعنى مزيدا من الأزمات لاقتصاد المعسكر الشرقي، ويعنى القطارا من  
ضرورات الحياة لدى شعوب هذا المعسكر من أجل هدف أهم: هو أن  
تكون هذه الدول أو لا تكون... وكما قلت ، فإن الاقتصاد الاشتراكي لم  
تنشأ فكرته أصلا من أجل عالم تصوره المنافسات العسكرية وصراعات  
الحياة والموت. بل أن مؤسسيه تصوريا قيام تنافس سلمي بين  
الرأسمالية والاشتراكية ، وبنوا تنبؤاتهم بحتية انتصار الاشتراكية

على أساس فكرة المنافسة السلمية».

ثم أضفت في موضع آخر من هذا المقال:

«استطاع المعسكر الرأسمالي بالفعل أن يوقف مسيرة المعسكر  
الخصم، بل أن يوسع الهوة المعيشية التي تفصله عنه. وكل من يزور  
بلدان المعسكر الاشتراكي ويقارنها بالبلاد الرأسمالية المتقدمة، لابد أن  
يصدمه الفارق الهائل في مستوى المعيشة بين الجانبين.. هذا القصور  
لا يرجع الا الى الاستنزاف المتعمد الذي يفرضه النظام الرأسمالي على  
إقتصاد المعسكر الخصم في ميدان التسليح، الذي أصبح الآن يهبط  
التكاليف. بل ان نقص الاستهلاك الذي يلاحظه الانسان العادي بسهولة  
في عالم لم تعد تقوم فيه حواجز بين المجتمعات ذات الانظمة المختلفة  
هو المسؤول عن عدم الاستقرار وعن تلك الثورات التي تشب من أن  
آخر في بلاد المعسكر الاشتراكي ، كالمجر وتشيكوسلوفاكيا ، وأخيرا  
بولندا ، ونتيجة لتلك الثورات تفرض السلطات مزيدا من القيود ،  
فيؤدي ذلك إلى مزيد من الغضب المكتوم ، وهكذا تستمر الحلقة  
الجهنمية في تضيق الخناق على هذا المعسكر ، بعد أن نجح المعسكر  
الرأسمالي في فرضها على خصومه حتى يلعبوا لعبة الصراع الدولي  
بقواعده هو ، وعلى أرضه هو .

هذا الكلام قيل منذ خمس سنوات ، ولعل القارئ قد ابرك انه يلقي  
ضوبا واضحا ، منذ ذلك الوقت المبكر ، على الكثير مما يقع اليوم من  
أحداث في الاتحاد السوفياتي وبقية بلاد المعسكر الاشتراكي .  
ان الحرب الباردة اختراع اميركي صرف . وكل من عرف شيئا عن  
أحداث الحرب العالمية الثانية يعلم أن اميركا لم تطلق في داخلها  
رصاصة واحدة طوال هذه الحرب ، على حين ان الاتحاد السوفياتي قد  
اكتسحت معظم اراضيها واحرقت حقوله وقراه ولقد أكثر من عشرين  
مليون قتيل ، ولقد تمكنت أجهزة الاعلام الاميركية من خلق صورة وهمية  
عن الخطر الزاحف من أرض السوفيات ، والذي يهدد بابتلاع العالم  
مالم يتم رده بقوة السلاح ، وانطقت هذه الاسطورة على الشعوب في  
أوروبا الغربية وفي اميركا بوجه خاص ، مع انها لم تكن الا اكذوبة  
كبيرة . وأغلب الظن ان مروجيها انفسهم كانوا يعلمون ذلك ، ولكن لهم  
مصلحة مؤكدة في تثبيتها في الأذهان . وذلك لان الشعب السوفياتي  
مازال حتى هذه اللحظة ، وبعد مضي خمسة وأربعين عاما على انتهاء  
تلك الحرب ، يعيش الأمها ومرارتها . وإذا كانت فتون الشعوب وأدائها  
خير شاهد على نفسياتها ، فمن السهل ان يلاحظ المرء ان فظائع

الحرب العالمية الثانية مازالت حية بقوة في وعي الشعب السوفياتي ولا وعيه معا ، يدلل أنها هي الموضوع الذي تدور حوله نسبة كبيرة من الافلام السينمائية والاعمال الادبية السوفياتية حتى اليوم ، وهو أمر يؤثر في كثير من الاحيان دفعة بالغة لدى مشاهدي هذه الاعمال وقرائها من الاجانب .

وهكذا فان العامل المادي ، المتمثل في الاعباء الاقتصادية الفادحة. والعامل المعنوي ، المتمثل في الذكرى الاليمة والحية لاهوال الحرب الاخيرة عليهما يؤكد ان اسطورة « القطر الروسي » على الغرب ، وعلى العالم ، لم تكن الا محاولة يارعة لتبرير سباق التسلح ، الذي يؤدي الي تشغيل المصانع وتخفيف البطالة وانعاش الاقتصاد في بلد رأسمالي، وه يبرمج « الرأي العام في اتجاه يساعد على دفع الضرائب المتزايدة التي تقتضيها ميزانيات التسلح.

ولقد كانت ذروة التصعيد في سباق التسلح هي ذلك البرنامج الشيطاني الذي عرف باسم « حرب النجوم » والذي يستهدف اقامة نظام لتدمير صواريخ العدو بأشعة الليزر في الفضاء قبل وصولها الى اهدافها ، وكان واضع هذا النظام في عهد « الرئيس الكاويوي » رونالد ريغان مؤمنين بان خطتهم الجهنمية لن تجلب لهم الا المكاسب :

فهو اولا تضمن اتفاق عشرات المليارات كل عام على هذا البرنامج وحده . بالاضافة الى ما ينفق على برامج التسلح وبرامج الفضاء الاخرى ، وتحقق انتعاشا هائلا لمجموعة ضخمة من الشركات المرتبطة به على نحو مباشر أو غير مباشر . ومن جهة اخرى فسوف يكون السوفيات مرغمين على التحرك لمواجهة هذا البرنامج ، وعندئذ تكون النتيجة إحد أمرين : فلو نجحوا سيكتفون قد أرهقوا اقتصادهم ، الذي هو أصلا غير مهيا لذلك ، الى حد يبلر بحدوث الثورة في تلك المجتمعات التي سيصل مستوى معيشتها عندئذ الى الضعيف . ولو اخفقوا فسوف يتفرد الاميريكيون بهذه الميزة - استراتيجية الهائلة ، ميزة القدرة على تدمير صواريخ العدو وهي في الفضاء الخارجي ، مما يجعل ايديهم طليقة كيما تعيث بالعالم كيفما شات ، ويضع حدا لوضع التنافس العسكري المتكافئ الذي ساد منذ الحرب العالمية الثانية . وفي اعتقادي الخاص أن هذا العامل بالذات كان له دور أكبر بكثير مما يتصور معظم الناس في تحديد الاتجاه الذي سارت فيه سياسة جورياتشوف منذ بداية حكمه . فقد فرضت عليه السياسة الاميريكية في

عهد ريجان أن يختار بين أمرين كليهما مر : فاما أن يدخل في منافسة ستقضى علي البقية الباقية من قدرة اقتصاد بلاده والكتلة الشرقية كلها علي الصمود ، واما أن يتراجع عن المنافسة ويترك الخصوم طلقاء يتحكمون في عالم الغد كما يشاؤون .

وكان القرار الذكي الذي اختاره ، والذي اعتمد فيه علي ثراث النزعة السلمية وكراهية الحرب المتاصل في بلاده ، وعلي مخاوف الأوروبيين من أن تكون بلادهم هي الساحة الاولى لاية حرب نووية بين العناتين - كان هذا القرار هو أن يشن حملة سلام كبرى ، يرغم فيها صفوف التسليح في الولايات المتحدة علي التراجع التدريجي رغم انولهم

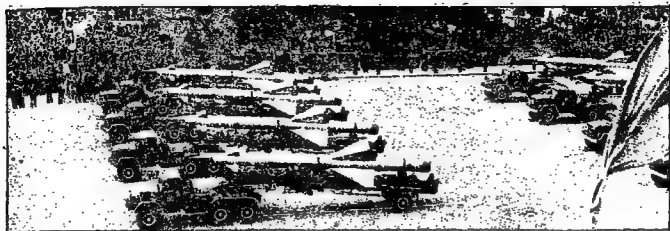
كان الاسلوب الذي اتبعه جورباتشوف في ابطاء قطار التسليح الذي كان يزداد اندفاعا عاما بعد عام ، اسلوبا بارعا بحق ، وهو يستحق في رأي دراسة متعمقة يقدم بها المتخصصون في العلوم السياسية وفي فن التفاوض بوجه خاص ، بوصفه نموذجا فريدا للطريقة التي يمكن بها إرغام حقائق جبار علي التخلي عن مواقف وقبول موافق الخصم دون أن يتمكن من التهرب أو المقاومة . ويمكن تلخيص هذا الاسلوب علي النحو الاتي : كان جورباتشوف يبدأ ( ودائما كان هو البادئ ) باقتراح في ميدان نزاع السلاح يثير تعاطفا شعبيا علي اوسع نطاق ، وخاصة في أوروبا ، كتقد معاهدة لخفض عدد الصواريخ بعيدة المدى ، أو تدمير الصواريخ المتوسطة « التي تخشاهما أوروبا بوجه خاص » . وبالبطبع يكون رد الفعل الاميركي المباشر هو الرفض ، وعادة « يكون » هذا الرفض مصحوبا بحجة تبرره ، مثل ضرورة التفتيش علي الصواريخ في مواقعها خمنانا لعدم الخداع ، وحين يسمع الاميركيون شرطا كهذا ، فانهم يعلمون جيدا أن الجانب السوفياتي ، الذي ظل دائما يخشى التقليل والتجسس الاميركي في بلاده ، سيرفضه حتما . ويظل جورباتشوف يلح ، ويظل الاميركيون مصرين علي شرطهم ، حتى يرسخ هذا الشرط في الزمان العالم .

ونجاة يعطن جورباتشوف قبول هذا الشرط ، ولا يجد الاميركيون مقرا من توقيع المعاهدة بعد أن يكونوا قد فقدوا نويعة الرفض أمام العالم اجمع . وبالمثل فان مشروعات كثيرة لنزع السلاح كانت تصطدم دائما برفض اميركي مبنئ علي شروط مثل ضرورة الاقلال من حجم القوات التقليدية السوفياتية في أوروبا . ويعد أن يرسخ هذا الشرط في الزمان

العالم ، يعلن جورباتشوف فجأة عن خلع كبير في قواته واسلحته التقليدية ، فيسقط في يد المتشدين ، ولا يمكن الا الاستجابة لطلبه .  
ولقد كان يبدو أن جورباتشوف لا يقدم ، في مسألة نزع السلاح ، الا التنازلات ، وأنه يستجيب دائما للشروط الاميركية . ولكن الامر الذي ينهني ان ينتبه اليه من ينتقونه على هذه التنازلات ، أن الهزيمة في هذا الميدان انتصار ، والضعف فيه قوة . فلو وقف السوفييات بفرهم موقف التشدد لكان معنى ذلك تصعيد سباق التسلح ، وتديد موارد هائلة يحتاج اليها اقتصادهم المخطط مركزيا اشد الاحتياج ، على صنع موبيلات جديدة من الاسلحة سرعان ما تصبح عديمة الجدوى بعد ظهور « جيل » الاسلحة الاحدث منها . اما التنازل ، الذي يبدو في ظاهره هزيمة ، فهو في حقيقة الامر انتصار كبير ، إذ أنه يرفع الخصم على التراجع وقبول الشروط التي وضعها هو ذاته ، ويضعف اقتصاد الخصم الذي يتعصفه التسلح المكثف ، بينما يقوى اقتصاد الطرف المتنازل ، فيجنى من هذا الضعف الظاهري مزيدا من القوة .  
يمثل هذه الاساليب الباهرة استطاع جورباتشوف ان يزيل بالتدريج وهم « الخطر السوفياتي » الذي رسخته أجهزة الاعلام الغربية ، والاميركية بوجه خاص ، في اذهان الناس في العالم غير الاشتراكي . ولقد كان ذلك الخطر المزعوم وهما بالفعل ، لا لان السوفيات ملائكة ، بل لانهم اكثر شعوب الارض معاناة من ويلات الحروب ، فضلا عن الاستنزاف الذي لايتحملة اقتصادهم . ولكن هذه الاسطورة كانت ضرورية لكي تقوم الاحلاف العسكرية ، وتعمل مصانع الاسلحة بكامل طاقتها ، ونحن الحياة بفضل تجارة الموت .

كل هذا بدده جورباتشوف بالفعال والعمية ملموسة . ولكم حاول المتشدين التشكيك في هذه الافعال ، ولكنه كان يثبت جديته ببدايات متجددة بلا انقطاع . كانت قصة الذئب والعمل تتكرر ، ولكن بطريقة معكوسة . اذا كان العمل في هذه المرة واعيا ، فلم يسمح للذئب بأن يلتهمه ، بل لم يعطه فرصة اتهامه بتعكير الماء الذي يشربه .

وما أن انقضت سنوات قلائل من حكم جورباتشوف ، حتى اختفت تماما صورة « الذئب الروسي » المسلح حتى الاسنان ، والمتاهب دائما للعدوان ، واصبحت شعوب العالم مقتنعة بأن جورباتشوف يريد بحق سلاما شاملا ، ويرقن كل ما يقول في هذا الصدد بالافعال . وكان امتناعه عن التدخل في احداث أوروبا الشرقية الاخيرة ، في جانب



سباق التسلح المجنون نزف موارد الاتحاد السوفيتي لعشرات من السنين

منه ، تمبيرا عن الرفض النهائي لسياسة حل المنازعات بالقوة المسلحة ، وتمسكا بالصورة السلمية التي رسمها بصير وحرس شديدين طوال السنوات السابقة . هل أن اميركا والاتحاد السوفيتي تبادلان الانوار في الشهر الاخير من العام الذي انقضى : ان تدخلت الجيوش الاميركية تدخلًا سافرا في بنما ، وسأقت من اجل ذلك حجة لا تختلف عن حجج حناة الاستعماريين في القرن التاسع عشر ، على حين ان القوات السوفياتية رفضت اطلاق رصاصه واحدة في اوربوا الشرقية ، بل رفضت التدخل الذي اغرتها عليه اميركا وفرنسا ، ضد الحاكم الطاغية في رومانيا ، ولم تقع في الفخ ، واصبحت صورة المعتدي ملتصقة ، في نظر العالم ، باميركا وحدها .

في هذا الجو ، يحاول حقور التسلح ، مثل ديك تشيني ، وزير الدفاع الاميركي ، ان يعولوا من أن لآخر الى عزف النغمة القديمة ، ولاسيما حين يقترب موعد تحديد ميزانية التسلح ، ولكن صيحاتهم لم تعد تجد من يستمع اليها . ومن المؤكد ان أي حديث عن « حرب النجوم » قد أصبح في ايامنا هذه صوتا نشارا وسط جو التهدة والتفاهم الذي اشاعته سياسة جورباتشوف وانعشت به الامل في سلام دائم .



ويكاد المرء يلمح في تصريحات المسؤولين الأميركيين نوعاً من العرص المكتوم على بقاء حلف وارسو العسكري ، على الرغم من أنه هو الحلف المناوئ لهم . إذ كيف يمكن تبرير المبالغ الضخمة التي تستقطع كضرائب من المواطن الأميركي من أجل صنع السلاح ، مالم يكن هناك حلف مضاد يصور للناس على أنه مصدر خطر دائم ؟ لقد ظلت الاستراتيجية الأميركية تستهدف مواجهة حلف وارسو والتفوق عليه . ولكن حين ظهرت بوادر لحل هذا الحلف أو تغيير طبيعته العسكرية ، بدأ القلق ينتاب واضعي هذه الاستراتيجية من ألا يجدوا أمامهم « خصماً » يتسلحون من أجله . وهكذا فإن حلف وارسو هو ، بالنسبة إلى العسكرية الغربية ، خصمها ويمر وجودها في أن واحد . ومن أجل هذا كان المرء يستشعر ، في تصريحات بعض القادة الغربيين ، نفخة قلق خفي من الأحداث الأخيرة التي يفترض أنها كانت انتصاراً كبيراً لهم . لقد كان سياق التسليح إذن عاملاً حاسماً في ذلك التغيير الثوري الذي أدخله جورباتشوف على سياسة بلاده ، وكان في الوقت ذاته من العوامل الهامة التي أدت إلى سلسلة الانقلابات المفاجئة في بلدان المعسكر الاشتراكي . ذلك لأن أعباء التسليح كانت توزع على الجميع ، وكان لكل بلد اشتراكي نصيبه من تلك النفقات الباهظة التي تتكلفتها عملية مجازاة التطور السريع والمتلاحق في صنع أدوات الدمار . ولم يكن أسهام هذه الدول في أعباء التسليح يتخذ بالضرورة شكل المشاركة في صنع السلاح أو في الميزانية العسكرية ، بل كان في أحيان كثيرة يتخذ شكل تقديم منتجات وبيع من إنتاجها إلى دول أخرى في المعسكر نفسه ، تعويضاً لهذه الأخيرة عن الخسائر التي تتكبدها في صنع السلاح، وهكذا كانت الخسارة تعم الجميع ، ويترتب عليها حتماً تدهور عام في الاقتصاد ، وانخفاض في مستويات المعيشة ، واقتتار مواطني أي بلد معين لكثير من المواد الأساسية التي يعلمون أن بلادهم تنتجها بوفرة .

ومع هذا كله فإن تأكيدنا لأهمية سياق التسليح في تفسير الأحداث الأخيرة سواء منها « هجوم السلام » الكاسح الذي يقوم به جورباتشوف ، أو ترمد البلاد الاشتراكية العنيف ضد انظمتها - هذا التأكيد ، مع أهميته القصوى ، لا ينبغي أن يحجب من أذهاننا مجموعة أخرى من العوامل الهامة . ذلك لأن التركيز على الاضطرار المترتبة على التسليح المرهق ، قد يولد لدى القارئ اعتقاداً بأن سوء الأوضاع الاقتصادية

وربما الاجتماعية والسياسة أيضا ، كان أمرا مفروضا من الخارج على هذا المعسكر ، وبأن أنظمة هذه البلدان كانت ضمنية خطة ذكية رسمها المعسكر المضاد . ولكن هذه النتيجة أبعد ما تكون عما أرمي إليه . حقيقة الأمر أنه كانت هناك ، إلى جانب العامل الخارجي السابق ، أخطاء داخلية فادحة ، وكان النظام الاشتراكي يتعرض لأسوأ تطبيق والنظرة تشوية يمكن تصوره ، على أيدي من يفترض أنهم حراسه والامناء عليه .

ولا بد أن يكون لهذا الموضوع الهام حديث آخر حين نواصل عرضنا لأسباب هذا الانقلاب المفاجئ في أوضاع المعسكر الاشتراكي .

# الخلل فى الداخل

لا جدال فى أن سباق التسلح قد وضع الكتلة الشرقية فى مأزق يجعلها عاجزة عن تحقيق الكثير من امكانات تجربتها الاشتراكية. ذلك لأن مؤسسى هذه التجربة، مثل ماركس وإنجلز وإينين، لم يعملوا حسابا للتنافس فى ظل حرب باردة وتسلح ثقيل تمتص تكاليفه هرق الناس وجهدهم عاما بعد عام ، بل تخيلوا جوا من التنافس السلمى، وتناطروا بحتمية انتصار الاشتراكية على الرأسمالية فى مثل هذا الجو. ولقد تمثلت براعة النظام الرأسمالى فى خلق أوضاع لم تخطر ببال هؤلاء المؤسسين، يدور فى ظلها التنافس داخل إطار مختلف تماما من ذلك الذى تصوره النظرية الاشتراكية، فنجح بذلك فى إبطاء نمو المجتمعات الاشتراكية وإبعادها عن السباق معه وإرخى التخلف عليها فى جوانب كثيرة من حياتها.

ويستطيع القارئ العربى أن يستوعب هذه النقطة بسهولة تذكر ما قام به الاستعمار العالمى تجاه مجتمعاتنا العربية من أجل إيقاف نموها .

فبعد أن أيقن أن عصر الاحتلال المباشر لاراضى الغير قد ولى، وأن المنطقة العربية موقعا استراتيجيا عظيم الاعمية بين الشرق والغرب الجغرافيين، وبين الشرق والغرب الايديولوجيين . وعرف أن هذه المنطقة تضم أضخم مخزون لاهم مصدر عالمي للطاقة، وأن موارد النفط يمكن أن تكفل لها نموا اقتصاديا واجتماعيا هائلا ، توصل الى أن ذرع اسرائيل في قلب الوطن العربى هو خير وسيلة لايقاف هذا النمو، فضلا عن أن هذا الكيان الغربى هو فى الوقت ذاته ركيزة وقاعدة كبرى للاستعمار فى المنطقة . ومن المؤكد أن النهضة والتنمية العربية كانتا ستتخذان طريقا أكثر ايجابية بكثير مما هو عليه الان، لو لم تكن اسرائيل قد حرزت فى قلب هذه المنطقة.

لقد كان الاسلوب واحدا فى الحالتين، وعن طريقه نجح الغرب الرأسمالى فى خلق ظروف مصطنعة تحول دون تمكين القوى المناوئة له من تحقيق امكاناتها الكامنة. ومع ذلك فإن هذا لايعنى على الاطلاق أن اخفاق التنمية ، فى الحالتين أيضا، لم يكن له من سبب سوى تلك المأامرة الاستراتيجية الكبرى، فقد كانت الاخطاء الداخلية فاسدة . ولما كان الحديث عن التجربة العربية خارجا عن إطار بحثنا العالمى، فسنحاول الان استخلاص أهم العوامل الداخلية التى أدت الى هذا الوضع الذى يبدو فى نظر العالم كما لو كان انهيارا تاما للتجربة الاشتراكية ككل.

لقد كان العامل الاقتصادى حاسما فى الثورة التى زلزلت أنظمة الدول الاشتراكية خلال شهور قليلة، ولكن هذا العامل لن يعالج مستقلا فى هذا البحث الذى نقوم به ، وذلك لسببين : أولهما أن كاتب هذه السطور لايعرف عنه، بحكم تكوينه الثقافى، إلا القشور. فالبحث فى تأثير ابتعاد الاقتصاد الاشتراكي عن نظام السوق، وعيوب نظام تحديد الاسعار، والمشكلات المترتبة على التخطيط المركزى، الى آخر هذه الموضوعات الاقتصادية ذات الاعمية العظمى، يفوق قدراتى الى حد

لايسمح لي باصدار أي حكم مفيد بشأنه. غير أن هناك سببا آخر هاما لعدم لجوئي الى معالجة العامل الاقتصادي علي نحو مستقل. هذا السبب هو أن الانسان الذي خرج يتظاهر في الشوارع مع مئات الالوف من أقرانه في الساحات الكبرى بمدينة بودابست أو براغ، والذي عرض صدره للرصاص في تيمشواراء لم يكن يثور من أجل عامل متزل عن بقية العوامل فالكيان الانساني وحدة لا تتجزأ، وحين يخاطر المرء بحياته من أجل أحداث تغيير جذري في مجتمعه، فانه يفعل ذلك بكيانه كله، ولايستجيب فقط لنداء معدته حين لاتجد ما يشبعها، أو جلده حين لايجد ما يدفئه ، وانما يستجيب أيضا لنداء عقله الذي يرفض كبت رأيه ، وروحه التي تأبى الظلم الواقع عليه. وفي الوعي السياسي والاجتماعي للمواطن العادي،لاينفصل الاقتصاد عن علاقة هذا المواطن بحكامه ورؤسائه وأقرانه ، وعن رأيه في الطريقة التي يدار بها مجتمعه ككل. وهكذا فان الاقتصاد، الذي يمكن أن يعالج مستقلا لأغراض التحليل العلمي، يكون جزئا من كل أشمل منه في الحياة الفعلية للانسان، وفي مختلف ممارساته الاجتماعية . ولما كان هذا الامر الأخير هو الذي يعطينا ، فان هذا يعطينا مبررا آخر لمعالجة موضوع الاقتصاد في سياقه الأوسع والأعم.

ولأضرب مثلا لفكرتي هذه، بالحديث عن انتاجية الانسان العامل في بلدان المعسكر الاشتراكي. هذا بالطبع موضوع يستطيع المتخصصون أن يزودونا فيه بأرقام وأحصاءات وجداول دقيقة ولكن اغلب الظن ان هذه المعلومات الكمية المفيدة ستؤدي ، آخر الامر، الى تأكيد ذلك الانطباع الذي يخرج به كل من زار بلدا من هذه البلدان، وهو ان العامل- بأوسع معاني هذه الكلمة أي بمعنى كل من يمارس عملا من أي نوع- اقل انتاجية بشكل واضح من نظيره في بلاد أوروبا الغربية، ناهيك عن أميركا واليابان. لحصيلة عمله محدودة، وطريقة انجازه لهذا العمل تقسم بقدر كبير من البطء والتكاسل. وعلى الرغم من أن هذا

حكم انطباعي تولد في نفس كاتب هذه السطور نتيجة زيارته لمعظم بلدان المعسكر الاشتراكي. واتفق فيه مع كثيرين غيره ممن كانت لهم مع هذه البلاد تجربة اطوله فان امثال هذه الانطباعات، حين تكون حصيلة ملاحظة دقيقة، لا يجوز تجاهلها، وخاصة اذا كان الفارق واضحا بينها وبين الانطباعات التي تتكون لدى من يزور بلدا من بلدان المعسكر الغربي.

المهم في الامر ان الانتاجية الضئيلة للعامل تشكل خطورة كبرى على حياة أي مجتمع: ذلك لان ثروة هذا المجتمع هي، الى حد بعيد، حصيلة انتاج العاملين فيه. فاذا كان كل عامل في موقعه لا يتحرك الا بهبطه ولا ينجح الا بالحد الأدنى، فان المجتمع ككل لابد ان يعاني ازمات اقتصادية خانقة.

ولكننا حين نبحث في الاسباب التي تجعل قدرات العامل الانتاجية محدودة، نجد انفسنا مضطرين الى الجمع بين الميدان الاقتصادي والميدان السياسي والاجتماعي، وربما الاخلاقي، في وحدة واحدة، ففي استطاعة المرء حين يتعمق التفكير في ظاهرة التكاثر والتباطؤ هذه ان يدرك وجود نوع من المقارعة الصامتة لدى شعوب اوربا الشرقية على الانظمة الجائرة التي كانت تحكمها. لقد كانت تلك الانظمة قمعية بكل ما تعمله الكلمة من معنى. وكان اوضح مظاهر القمع ان تنس معظم دساتيرها على ان حزبا بعينه، هو الحزب الشيوعي، ايا كانت تسميته في كل دولة على حدة، هو الحزب الحاكم، مما يترتب عليه ان يصبح أي خروج عن تعاليم ذلك الحزب أو أية محاولة لاحلال حزب آخر محله، خروجا عن الدستور يستحق أشد العقاب. فما معنى أن يعطي أي حزب لنفسه هذا «الحق الالهي» في أن يكون هو الحاكم الى الابد؟ واذا كانت مبادئه الاساسية تقول أنه هو المدافع الحقيقي عن العمال والفلاحين لانه هو الذي يمثل طبقتهم تمثيلا أميناً. واذا كان العمال والفلاحون هم الاغلبية الساحقة في أي شعب، فلماذا لا يجعل سلطته مرتكزه على

اختيار يمارسه هذا الشعب بحرية تامة؟

وطبيعة الحال فإن هذا القمع الرئيسي، الذي يتمثل في ذلك الاهدار «الدستوري» لاية فرصة أمام الشعب كيما يقتار السلطة التي تحكمه، لابد أن تتفرع عنه ألوان أخرى من القمع لا تقل عنه قسوة وخبراوة، فحرية الكلام والتعبير عن الرأي مصادرة الا في الحدود التي تسابير النظام. وحرية السفر محظورة الا للوفود الرسمية وفي ظل رقابة مشددة، ولقد كان لضياح هذه الحرية الاخيرة بالذات اسوأ الأثر في نفوس جماهير أوروبا الشرقية التي توي كل بلد أودى حربي يكاد يفرغ سكانه خلال العطلات الصيفية لكي يوزعهم سياحيا على بقية البلدان. أما المركزية الشديدة للسلطة فتقتضى تماما على قدرة الفرد على التصرف، ولو في أضيق الحدود، فأبسط مطلب يحتاج الي قرار يمكن أن يمر علي عشرات من الموظفين، حسب تدرجهم الهرمي، ولا يجاب الا بعد وقت طويل وتعقيدات ادارية مملّة . ولم تكن الاضرار التي يسببها سرطان البيروقراطية مقتصرة على جهاز الدولة، بل انها كانت تولد خميرة سخط تتجدد دائما بين الجماهير.

ومن جانب اخر فإن الحزب الذي جاء من اجل القضاء على الفوارق بين الطبقات، قد صنع هو نفسه تفاوتاً طبقياً صارخاً بين أعضائه وبين بقية الشعب، إذ كان أعضاء «الحزب» يتمتعون بامتيازات مادية ومعنوية ملموسة، بل كان لهم في بعض هذه البلاد امتيازات خاصة حتى في ميدان التعليم. ومن اجل حماية هذه الاوضاع الجائرة كان لابد من وضع نظام صارم يضمن اسكات الاصوات المعارضة ، والتجسس على المواطنين عن طريق ذرع حلاء السلطة في مواقع العمل العادية أو تجنيدهم من داخلها، وإقامة أجهزة صارمة للامن تسهر على إقلاق راحة المواطنين وتضمن انضباطهم وتماقيهم بقسوة لو خرجوا عن الخط المرسوم.

وليس ثمة شيء يثير نفعة الشعوب بقدر التناقض بين الشعارات

المملنة والممارسات الفعلية لحكامها، فحين ترى الشعوب كبار «الثوار» فيها يعيشون حياة الاقطاعيين المترفين، وحين ترى أساطين الاشتراكية يتعمون بأجل المذاذ «البورجوازية»، عندئذ يتجاوز ذلك التناقض طاقتهم على التحمل، ولو كان النظام يعلن على الملأ أنه رأسمالي أو اقطاعي ويعترف مقدما بالتفاوت الحاد بين الطبقات وفلسفة، على طريقته الخاصة، لتحملته الجماهير بعز يد من رحابة الصدر، فحين يعلن الاميريكيون، مثلا انهم دولة رأسمالية تقوم على مجتمع الفرصة «وان أساس نظامهم يقتضى أن يكون البعض من أصحاب الملايين والبعض الآخر من العاطلين المعدمين، ويسود لديهم شعاره كل واحد وشطارته»، وعندئذ لا يكون سحق الناس عميقا حين يشاهدون مظاهر البذخ التي يعيش بها آل روكفلر أو آل ديبيونت، بل ربما كانت هذه المظاهر ذاتها من عوامل تقوية النظام وتدعيمه، لانها ترسخ في نفس كل انسان «الحلم الاميريكي»، وتهمه بان «نادي الليونيرات» ليس مغلقا، بل أن أبوابه المفتوحة ترحب بكل من يملك الهوية المطلوبة، أو يتحين الفرصة الملائمة.

أما حين يعلن الحكام أنهم انما جاءوا من قاع الجماهير الشعبية، وأنهم يمثلون مطالب الاغلبية المسحوقة ويجسدون امنياتهم، ثم يراهم الناس يعيشون حياة مرفهة منعمة يتمتعون فيها بكل المذاذ التي حرمت منها الجماهير، فعندئذ تتراكم عوامل الثورة ويغلي الاناء المكتوم.

وطبيعة الحال فانه لا أقصد بهذه المقارنة القول انه لا توجد اسباب للسخط بين الزنوج والملونين وغيرهم ممن يعيشون على حافة الفقر في «جنة الرأسمالية» (وهم اكثر مما يتصور معظم الناز)، بل أن كل ما أعنيه هو أنه حين يكون ذلك التفاوت بين الطبقات جزءا لا يتجزأ من الفلسفة المملنة و المعترف بها للمجتمع، تكون نواحي السخط عليه اقل مما هي في المجتمعات التي يقوم نظامها على إلغاء الفوارق



الطبقية، ويكون اصحاب السلطة فيها هم أنفسهم أوضاع تجسيد لهذه الفوارق.

ولعل الكثيرين من الجيل الاوسط والاكبر في مصر وكثير من الاقطار العربية يذكرون اسم «الشيخ عاشور» الذي كان إماما غير متميز في أحد مساجد الاسكندرية، وانتابته في إحدى خطبه، خلال الستينات، نوبة غضب لتحدث عن الاتحاد «الاشتراكي» الذي يركب قايته المرسيديس وترتدى نسائهم أغلى أنواع الفراء... الخ.. فوقع عليه اضطهاد من السلطة (اختلفت الآراء في نوعه ومداه)، ولكن ما يهمنا من القصة هو أن هذا الرجل بإمكاناته المحدودة، حين رشح نفسه بعد سنوات لعضوية المجلس النيابي فاز فوزا ساحقا. بلا مجهود، واكتسح مرشحين انفقوا في حملتهم الانتخابية ألوانا مؤلفة . وحين عاد الي ممارسة هوايته في النقد الصريح والساذج داخل المجلس، طردته منه الحكومة «بالقانون» (١). فحاول ترشيح نفسه مرة أخرى، وكان واضحا انه سيكتسح الدائرة للمرة الثانية، فاضطرت الحكومة الى «تفصيل» قانون يحول دون اعادة ترشيحه، والنتيجة التي أريد أن أحلص اليها من هذه القصة هي ان الجماهير تتعاطف بقوة وعفوية مع كل من يفضح التناقض بين الشعارات المعلنة لانظمة الحكم وبين ممارستها الفعلية.

ولكي تبرز تلك الانظمة الاشتراكية المسوخة تصرفاتها، لجأت الي نشر الدعوة الي الزهد بين الجماهير، على نحو يذكرونا كثيرا برجال الكنيسة في العصور الوسطى، الذين كانت مواعظهم كلها تدور حول العزوف عن متع الدنيا والعمل من اجل الآخرة، بينما كانوا هم أنفسهم يعيشون حياة يستمتعون فيها بكل ما تقدمه «الدنيا الفانية» من ملاذات . وتجسدت هذه الدعوة على شكل عقيدة معادية للاستهلاك . فنهجت في اقتناع عقول كثيرة بأن الاستهلاك يتعارض مع شعور المواطن بالمسؤولية، وتبنى هذه الدعوة عدد كبير من مثقفي العالم الثالث، حتى

اتخذت لدى البعض طابعا مضحكا مبكيا، حين اخذوا يلومون شعبا  
 كالشعب المصري، مثلا ، على إفراطه في استهلاك الخبزا  
 وبطبيعة الحال فان أبعد الامور عن ذهني أن أدافع عن نمط الحياة  
 الباذخة، الذي يجعل من الاستهلاك الترفى لسلع مادية معقدة وغير  
 ضرورية على الاطلاق، هدفا أساسيا لحياة الانسان، ولاسيما حين يكون  
 معظم افراد مجتمعه محرومين من الضرورات الأساسية في الحياة فمثل  
 هذه الحياة المفرطة في الترف ظالمة، لانها تتم دائما على حساب شقاء  
 الآخرين، فضلا عن أنها تافهة، لانها تستمضى عن الجوهر الداخلي  
 العميق بالمظهر الخارجى السطحي . ومع ذلك فليس من العدل ان  
 يتطوّر مذهب من المذاهب في التنديد بالاستهلاك الى حد يولد شعورا  
 بالذنب لدى كل من يمارسه في حدود ضيقة. ذلك لان الاستهلاك هو، في  
 نهاية المطاف، أحد المؤشرات الهامة للتصيب الذي يناله الانسان من  
 الدنيا. ومن الظلم البين أن نخدع الناس فتوهمهم بأنهم يخولون  
 مجتمعهم حين يتطلعون الى نيل نصيبهم هذا، لجرد أن السياسة  
 الفرقاء التي يتبعها نظام ما جعلته عاجزا عن أن يضمن لشعبه  
 مستوى آمنا للمعيشة.

المهم في الامر أن القهر المعنوي والفقر المادي كانا يسيران، في  
 تلك التجربة، جنبا الى جنب، وإذا فان من خير المجدي أن نحاول فصل  
 أحدهما عن الآخر، ومن هنا كانت الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها  
 الانسان، في تلك المجتمعات، أن يقلّم النظام، ويعبر عن احتجاجه على  
 ممارسته، هي أن يثكأ في عملة وظل انتاجيته ، وكان ذلك كما قلت  
 أحد الاسباب الرئيسية لضعف الاقتصاد في الدول الاشتراكية، بل ان  
 تبادل التأثير بين القهر المعنوي والفقر المادي يؤدي الى حلقة جهنمية  
 تتخلل تدور بلا نهاية. فمقاومة القهر السياسي والاجتماعي، عن وعى أو  
 بغير وعى، بالجوء الى التراخى في العمل ، تؤدي الى مزيد من  
 النقص في موارد المجتمع ككل، مما يزيد من شحن طاقة الضغط لدى

الجامعير، فيترتب على ذلك اشتداد القمع والقهر، وتظل القصة تتكرر الى ما لا نهاية.

على أن من الخطأ الفادح أن يترك الكاتب في هذا الموضوع لدى قرائه انطباعاً بأن الصورة كانت قائمة كلها. فقد حلت التجربة الاشتراكية، حتى في أحلك نعالجها، انجازات، المجانية الكاملة في التعليم والعلاج الطبي، مع رفع مستواها باستمرار، وحل مشكلات معقدة كالمواصلات والسكان بأساليب تخفف الاعباء عن عاتق الطبقات الشعبية، حتى لو كانت بعيدة عن معايير الترف كما تلمسها الشعوب المحظوظة، ورعاية الدولة للثقافة مع اناعتها للقاعدة جماهيرية واسعة، وحل اعظم الانجازات جميعاً هو ذلك الامان الذي يحيط بالانسان في عمله وحياته: فالمجتمع لايعرف البطالة، والشيخوخة مؤمنة (بتشديد الميم)، ورفاهة العائل لاتعنى تشريد أسرته، والاسعار المحددة مقدماً، والموحدة في كل مكان، تغطي المشتري اماناً لا يحس به الا من عانى خداع البائعين ومناوراتهم، فاذا اضلنا الى ذلك ان الاشتراكية في المسكر الشرقي قد طبقت في بلاد كانت كلها - باستثناء تشكوسلوفاكيا- تمثل «الريف» الاوروبي، أمكننا ان ندرك ان هذه الانجازات لم تكن بالأمر الهين على الإطلاق.

على أنني أود، قبل أن أترك هذا الموضوع، أن أعلق قليلاً على ميزة الامان الاجتماعي هذه، إذ يبدو أن الامان المفرط يؤدي الى عكس الهدف المقصود منه، ويبدو أن العامل في المجتمع الذي لايمتدحه مثل هذا الامان التام يمارس عمله بحماس أكبر، وبانتاجية أعظم، مع أن الذهن يميل نظرياً الى تخيل عكس ذلك، ويخيل الى أننا هنا إنزاء مشكلة فلسفية في المحل الأول: فهل من الصحيح أن الانسان يحتاج الى قدر معين من الشعور بالخطر كيما يقدم أفضل ما لديه؟ هذا سؤال يكفيننا أن نطرحه الان على القارئ، لان الغرض في تفاصيله سيبيعدنا كثيراً عن موضوعنا الأصلي.

لقد كانت الايجابيات كثيرة بغير شك، ومع ذلك فان المرء لا يملك إلا أن يأسف بمرارة لان التجربة كان في وسعها أن تحرز نجاحا يفوق ما حققته بمراحل. لو لم يكن الفساد الداخلي والخلل التنظيمي والاستبداد القيادي قد وصل فيها الى هذا الحد المؤلّم. ويبدو لي أن السبب الرئيسي لهذا الخلل هو أن بلدان المعسكر الشرقي في أوروبا لم تنتقل الى الاشتراكية من خلال تجربة اصيلة، وانما فرضت عليها الاشتراكية بشكل أو آخر، نتيجة لغزو الجيوش السوفياتية لهذه البلاد خلال المراحل الاخيرة من قتالها ضد جيوش هتلر المنسحبة في الحرب العالمية الثانية. وكان نصيب الاتحاد السوفياتي من الغنيمة، بعد حرب كان له فيها الدور الاعظم بلا جدال، هو أن يقيم حوله حزاما من الدول ذات الانظمة المؤيدة له والمندمجة فيه. وهكذا لم تتكون «الكتلة الشرقية» نتيجة كفاح بمائل لذلك الذي خاضه لينين والبلاشفيون في روسيا قبل عام ١٩١٧، وانما جاءت الاحزاب الشيوعية فيها الى الحكم بالتعيين، ان جاز هذا التعبير. ومن هنا كانت الفجوة عميقة بينها وبين قطاعات جماهيرية تزداد اتساعاً كلما أمعن النظام في ممارسة أساليب القمع . وكان وجود القوات، أو «الحاميات» السوفياتية في هذه البلاد هو السند الاساسي لهذه الانظمة ، وهو الذي يقبها سخط الجماهير في أوقات الشدة.

ومن المؤكد أن هذه الجماهير كانت تختزن في داخلها قدرا هائلا من الثورة المكبوتة، بدليل أنها تحركت بمجرد أن تلاقت من أن سياسة جورباتشوف لا تؤيد التدخل العسكري من اجل دعم أى نظام للحكم لا يرغبى عنه شعبه. وحين تبين بالدليل العملية، بعد الانسحاب السوفياتي من أفغانستان في أوائل العام الماضي، أن هذه السياسة حقيقة لا رجعة فيها، كانت تلك اشارة الانطلاق نحو الثورة المكبوتة.

ان جميع الدلائل تدل على أن جورباتشوف كان منذ البدء واعياً بأن الوضع الذي كان سائداً في الكتلة الشرقية يستحيل أن يستمر

الى الابد، وبان تغييره بات محتتماً ، وكلما كان التغيير أسرع كان ذلك افضل. وجميع تصرفاته تؤكد أنه يدرك استحالة بقاء نظام يطن أنه قام لمصلحة الانسان، وفي الوقت ذاته يقهر الانسان ويقمعه.

ومن الواضح ان سياسته تقوم على مبدأ أساسى هو في ظروف العالم الراهنة، مقاومة كبرى ، وأعنى به أن على هذه الانظمة أن تثبت جدارتها بالبقاء بقواها الخاصة، وليس بمساندة الجيوش وقوات الامن السرية، والا فلا مقر من أن تخوض مجتمعاتها تجربة جديدة وتبدأ من الصفر. وبطبيعة الحال فقد رأينا حولنا في الاشهر الاخيرة نماذج كثيرة لمثقلين من المتعاطفين مع الاشتراكية ، يلعنون الزعيم السوفياتي لانه فتح على نفسه بابا لن يستطيع إغلاقه، ولان النتيجة العملية لسياسته تؤكد على أن تؤدي الى تصفية المعسكر الاشتراكي بمرته، ولكن من يوجهون هذا النقد يفتلون مسائل أساسية: فهل كان المطلوب ترك الاوضاع القائمة على ما هي عليه، من أجل الحفاظ على وحدة المعسكر؟ وهل يكون من حق أحد، بعد ان اتضح له مقدار السخط المتراكم لدى الشعوب نفسها، أن يعترض على ما حدث؟ هل كانت تلك اشتراكية بحق، إذا كانت الجماهير قد رفضتها الى هذا الحد؟ الحق أن اصحاب هذا الاعتراض يسيئون الى الاشتراكية، التي يزعمون الدفاع عنها، اساءة بالغة حين يستنكرون عملية إطلاق المشاعر العبيسة لدى الجماهير، لانهم يفترضون ضمناً أن بقاء الاشتراكية رهين باستمرار القمع واستخدام القوة لاضمار كل صوت معارض.

وأخيراً فالتى اذا كنت قد ركزت في هذا الفصل على العوامل الداخلية التي اساحت ابلغ الاساءة الى صورة الاشتراكية في مجتمعات الكتلة الشرقية، وأكدت أن هذه العوامل تفسر الى حد بعيد عنف رد الفعل الذي لمسه العالم كله بين شعوب هذه الكتلة ضد إنظمتها الحاكمة، فان هناك عاملاً آخرى ينبغي ألا يغيب عن بالنا، ما سمنا بصدد استقصاء الاسباب المؤدية إلى هذا التحول العاد. فمن المؤكد أن هناك

أصابع متأمرة تستغل الأخطاء الفاسدة لكي تزيد النار اشتعالا، وتوجه حركة الجماهير العفوية الى طريق تقطع فيه جميع روابطها الماضية ، إلى الأبد. وكل من يتابع الأخبار بأمعان، يستطيع أن يدرك بسهولة الدور الذي تلعبه وكالات الأنباء الغربية في تشوية كثير من الأحداث: فإذا غير أحد الأحزاب الشيوعية اسمه نقل الخبر بصيغة توحي بأن هذا الحزب قد حل نفسه، وإذا حذفت مادة في الدستور تنص على احتكار هذا الحزب للسلطة، أوجت إلينا وكالات الأنباء بأنه قد استبعد نهائيا من الحكم. هذا فضلا عن الانتقائية الواضحة في اختيار الأشخاص الذين يقدم إليهم الميكروفون. لإبداء رأيهم في الأحداث، والفجاجة المقلزة في تصوير الجماهير وهي تقبل على شراء اللحم بنهم . وتلذذ المذيع بالسخرية من الشهاب الذي يمسك ثمرة «الكوي» دون أن يعرف اسمها.. الخ. هذا كله اصطياد في الماء العكر، على المستوى الاعلاني، لان الفرصة السانحة الآن لا تعرض، والحديد يجب أن يطرق وهو ساخن. اما على مستوى الأحداث نفسها فلا مفر في أن يشك المرء في وجود أصابع أجنبية في تلك التحركات التي تعرض الجماهير على استمجال قطف الثمار، مع أن الإصلاح لم يكد يبدأ الا بالامس القريب ولا أشن أن الحركات الانفصالية والعرقية في الجمهوريات السوفياتية . وهي في الآونة الراهنة أخطر ما يواجه جورياتشوف ، تخلص من هذا العنصر التأمري.

وعلى أية حال فإن اشارتي الي هذا العامل لا تنفي على الإطلاق أن التجربة، بالصورة التي اتخذتها طوال العقود الأخيرة، كانت تحمل في طياتها بذور إخفاق صارخ، وأن ذلك المزيج من الغباء والتسلط والقمع والعناد، الذي كانت تدار به الأمور في بلاد الكتلة الشرقية حتى الامس القريب، كان هو المسؤول الاول عن زعزعة الفعل العتيقة التي قامت بها جماهير خابت آمالها في أنظمة كانت تنقسم ليل نهار بأغلب الايمان أنها لا تعمل الا لصالحها.

### هل تصمد النظرية الاشتراكية؟

عندما يجري المراء أية مقارنة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي، في ظروف العالم الراهنة، فسوف ينتهي حتما الى تأكيد تفوق الاول على الثاني في نواح هامة وحيوية، على رأسها الاقتصادية، غير أن اجراء مثل هذه المقارنة ينطوي على قدر من الظلم: إذ أن التجربة الاشتراكية أولا، أحدث عهدا بكثير من التجربة الرأسمالية. فالاولى امتدت أربعة قرون على الأقل، منذ مطلع العصر الحديث، بينما الثانية لم تبدأ الا منذ سبعين سنة في دولة واحدة ، ومنذ أقل من خمس وأربعين سنة في بقية الدول الاشتراكية في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. ومن المتوقع في فترة قصيرة كهذه أن يكون النظام في مرحلة لايزال يسودها طابع التجريب، وأن يقع خلل تجاريه في أخطاء فاحشة.

ومن ناحية أخرى فإن هذه الفترة القصيرة لم تكن على الإطلاق، بالنسبة إلى اصحاب هذه التجربة ، فترة هدوء يستكشفون فيها أبعاد

تجربتهم ويعملون على تطويرها بصورة ايجابية، وانما كانت فترة صراع ضد المقاومة الداخلية في البلاد الاشتراكية من جهة، وضد المقاومة الخارجية الضارية التي حاول بها النظام الرأسمالي وأد التجربة الجديدة منذ لحظة ولادتها من جهة أخرى، وفيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة، فلا بد أن نذكر أن العالم، عند مطلع العصر الحديث، كان خالفا للرأسمالية، وكان في حالة «فراغ أيديولوجي»، إن جاز أن نستخدم في وصفه تعبيراً معاصراً. فلم تكن هناك مقاومة تذكر لان الاقطاع والكنيسة كانا في زمن الاول، بل يمكن القول، على العكس من ذلك، إن موارد العالم كله قد سخرت من أجل إنجاح التجربة الرأسمالية ، وذلك عن طريق الاستعمار وغزو الاسواق واستغلال الأيدي العاملة المجانية بالرق، الخ. وهكذا استطاعت الرأسمالية أن تطرد نفسها بالتدريج، وتحقق جميع إمكاناتها، في جو عالمي موافق وملئم الى أبعد حد. أما الاشتراكية فقد ظهرت الى الوجود في وقت كان فيه النظام الذي تسعى اليه الحلول محله قد بلغ أوج قوته، ومن ثم فإنه قد مارس ضدها منذ بدء ظهورها وحتى اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، مقاومة ضارية، ولم يدع لها فرصة للتفكك لحظة واحدة في هدوء، ولا ننسى في هذا الصدد التأثير المدمر للحرب العالمية الثانية ، التي خرجت منها الدولة الام في النظام الرأسمالي سليمة متجددة الحيوية، بينما خرجت الدولة الام في المعسكر الاشتراكي (والوحيدة حتى ذلك الحين) مصطبة مثقنة بالجراح.

وهكذا فإن أية مقارنة متصفة بين إنجازات النظامين ومستواهما وما حققاه لمجتمعاتها ينبغي أن تأخذ هذه الفوارق الجوهرية بعين الاعتبار. ومع ذلك فإننا نعتقد اعتقاداً راسخاً بأن التجربة الاشتراكية، سواء تلك التي بدأت في نهاية الحرب العالمية الاولى أم تلك التي بدأت في أعقاب الثانية، قد ارتكبت أخطاء فادحة لم يكن لها ما يبررها حتى مع عمل حساب جميع الفوارق السابقة. وهذا الرأي لم يعد اليوم مجرد



استنتاج فكري، وإنما تؤيده وتؤكدُه أصوات الجماهير الهادرة في  
مواضع الدول الاشتراكية. فلابد أن يكون هناك خلل واضح في النظام  
الذي يقوم بناؤه الايديولوجي على العمل لصالح القاعدة الجماهيرية  
العريضة ، إذا كانت هذه القاعدة الجماهيرية هي ذاتها أول من يثد  
عليه بضراوة.

ولكن السؤال الذي يشغل العالم بأكمله اليوم، ليس تحديد مدى  
الخطأ في التجربة الاشتراكية ، وإنما هو: هل لازالت للاشتراكية فرصة  
للبقاء في عالم اليوم والاستمرار في عالم الغد؟ هل تركت لها تلك  
الكرامية التي تتضح بها وجوه المتظاهرين الساخطين أملا في أن تظل  
أيديولوجية رئيسية عندما يحل القرن المقبل، أم أن العقد سينفك  
سواء بالحركات القومية الانفصالية داخل الاتحاد السوفياتي، أو  
بالتبرؤ من كل ماله صلة بالعهد السابق، في بقية الدول الاشتراكية؟  
يبدو لي أن الاشتراكية ، كأيديولوجية جماهيرية، تواجه في هذه الأيام  
أول اختبار حقيقي لها، فحتى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما  
اجتاحت الجيوش النازية الجزء الأكبر من الأراضي السوفياتية الأوروبية  
وتوفلت مسافات غير قليلة في الجمهوريات السوفياتية الآسيوية، لم  
يكن الاختبار الذي تتعرض له الاشتراكية يمثل هذه القسوة. ذلك لأن  
تعبئة الشعب الوطني الذي يرتبط بتراث أقدم بكثير من التجربة  
الاشتراكية، قد أدت نورا هائلا في ذلك الصعود الأسطوري الذي تمكن  
السوفييات بفضلله من إلحاق أمدح الهزائم بالغزاة النازيين. أي أن  
الاشتراكية لم تكن هي نفسها التي تتعرض للمحنة والاختبار. أما في  
هذه الأيام فإن المبدأ الاشتراكي ذاته هو الذي أصبح موضع التساؤل ،  
وقدرته على الاستمرار هي التي أصبحت موضع شك.

والمخرج الذي يلجأ اليه المثقفون عادة حين يصادفهم مأزق مماثل  
لهذا الذي تواجهه الاشتراكية في هذه الأيام، هو التمييز الحاد بين  
النظرية والتطبيق. فقد أثبتت الأحداث أن التطبيق كان سيئا إلى أبعد

حد، وأن أولئك الذين وضعوا على قمة المجتمعات الاشتراكية لكي يكونوا حراساً للمبدأ وأمناء عليه، قد أساءوا إليه بممارستهم اللاإنسانية أبلغ الاساءة. ولكن المختلف يظل مصبراً على أن النظرية ذاتها غير مسئولة عن أخطاء التطبيق، وعلى أن ما حدث لم يكن إلا انحرافاً للممارسات عن المبدأ القويم، ومع ذلك فإن هذه الاجابة لا تلقى الكثيرين. ذلك لان من حق المرء أن يشك في أية نظرية تعجز عن تجسيد نفسها في الواقع العملي الى هذا الحد، أو تسفر عن نتائج مخيبة للآمال كلما طبقت.

ولا بد أن تكون النظرية التي تؤدي، في كل مرة تطبق فيها عملياً، الى ظهور طغاة أو مجموعات حاكمة متحجرة تستغل نفوذها أسوأ استقلال. لا بد أن تكون هذه النظرية مشوبة بعيوب أساسية، لأن أحداً لا يستطيع أن يفصل بين الميدان النظري والميدان العملي التطبيقي الى حد تصوريهما بأنهما ينتميان الى عالمين متباعدين لا يلتقيان.

نعم، كانت هناك عيوب أساسية في النظرية ذاتها، بالإضافة الى التجاوزات القاتلة في التطبيق. ولا جدال في أن مناقشة هذه العيوب تقتضي جهداً ووقتاً كبيرين. وقد قدم الكثيرون ، على مدى سنوات طويلة آراء خصبة في هذا الشأن، يستحيل أن يتسع المجال للحديث عنها في مثل هذا العيز المحدود. وربما كان الامر المجدي حقاً، في هذا السياق، هو أن نورد أهم ما كشفت عنه الاحداث الاخيرة من عيوب في النظرية ذاتها، لأن الوعي بهذه العيوب سيكون هو المدخل الى عملية التصحيح الكبرى التي ستحاول الاشتراكية القيام بها في الاعوام القليلة القادمة ، اذا لم تطرأ عوامل تهدد فرصتها في القيام بأي تصحيح.

أول هذه العيوب تجاهل انسانية الانسان. صحيح أن مبدأ الاشتراكية يقوم أصلاً على تحرير الانسان من عبودية الاستغلال الذي يمارسه رأس المال، ومن تعامل الرأسمالية معه كما لو كان «شيئاً» يباع ويشتري. غير أن الفكر الاشتراكي قد طور على مر السنين مفهوم

للإنسان يؤكد الجانب الاجتماعي فيه أكثر مما يرمى الجانب الفردي. فالإنسان الذي تجمعه الأعمال الأدبية والفنية والفكرية، التي تسودها الروح الاشتراكية، سواء أكانت اشتراكية ماركس أم غيره، هو الإنسان الذي تندمج أهدافه كلية مع أهداف المجتمع، وهو الذي ينسب نفسه كفرد له حاله الخاص، لكي يوجد ذاته مع الكل الأكبر الذي ينتمي إليه. ومن السهل جدا، عند التطبيق، أن يتحول هذا المبدأ الذي كان هدفه في الأصل نبلا، إلى مجرد لقيع للإنسان وظلمه، فما أسهل أن يتم أي حاكم مستبد مثل ستالين من يعارضه بأنه يتآمر ضد مصلحة المجتمع، فيصدر حكما بأعدامه وهو مرتاح الضمير، لأن «الكل الأكبر» هو الغاية القصوى، وفي سبيله يهون كل شيء. وما أسهل أن توضع مصالح «الخطأ» الشاملة فوق مصالح فئات كثيرة قد تجد من المستحيل، أو من المرفق، تنفيذها تبعا لرؤية المخططين الذين لا يرون إلا الصورة «الكلية» ويتجاهلون كل ما في داخلها من جزئيات إنسانية. وما أسهل أن تتم التضحية بكثير من ضرورات الحياة في هذا البلد أو ذاك من أجل مصلحة «المسكر الاشتراكي» ككل. وهكذا فإن المبدأ الذي يوضع في الأصل لتحقيق مصالح أوسع قطاعات من الجماهير، يتحول بالتدريج إلى مجرد فكري لقيع الجماهير وتجاهل مطالبها المشروعة.

ولقد حاول الكثيرون، طوال تاريخ الحركة الاشتراكية، أن يؤكدوا أهمية هذا الجانب الإنساني، ويقتنعوا الأحزاب الاشتراكية، سواء أكانت في الحكم أم خارجه، بأن إعطاء جرعة من اللذة الإنسانية إلى مذهب سوف ينشطه ويزيد من عافيته. خير أن هذه المحاولات كانت تصطدم دائما بموقف المدافعين عن «الصرامة» و «القوانين الموضوعية» وكانت تنتهم بأنها اشتراكية «رخوة» أو «غير علمية» لأن الاشتراكية الحقيقية في نظر هؤلاء المتشدين يجب أن تضع في اعتبارها العوامل العامة التي تتحكم في مسار التاريخ، وهذا وحده هو ما يجعلها «اشتراكية علمية» بالمعنى الصحيح، أما تلك الرفافة الإنسانية فإنها تعمل

السياسة الى شيء أشبه بالشعر أو الفن. ولعل في هذا ما يفسر، الى حد بعيد، تلك الازمات المتلاحقة التي كانت تثور بين سلطة الحزب وبين الفنانين والادباء ، منذ بداية الثورة الشيوعية في ١٩١٧ حتى اليوم ، ولعل فيه أيضا ما يفسر تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الانسانية، وهي قيام الجماهير الثائرة على الاستبداد الصارم للحزب في تشيكوسلوفاكيا، خلال الاحداث الاخيرة ، باختيار «كاتب مسرحي»

رئيسا للجمهورية (وهي فيما اتصور المرة الاولى التي يحكم فيها أحد رجال المسرح بلدا بأكمله، مما يطرح تساؤلات طريفة، ينتظر المراء الاجابة عنها بشوق وتلف، حول الطريقة التي سيتحول بها تفكيره هافيل» من استخدام خياله في تحريك شخوص المسرح وأحداثه بحرية كاملة ، الى استخدام عقله في تحريك أوضاع الاقتصاد والدبلوماسية والدفاع في عالم الواقع الذي لايلين!!)- هذا فضلا عن الدور الكبير الذي أسهم به الادباء والفنانون والكتاب في أحداث البلاد الشرقية الاخرى ، والاتحاد السوفياتي نفسه، ووصول عدد منهم الى مراكز قيادته في المجر ورومانيا وغيرهما بعد الثورات الجماهيرية الاخيرة.

ان لتجاه الشعوب الى الكتاب والفنانين في مثل هذه الظروف يمثل رد فعل واضحا على تجاهل الانسان النابض بالحياة في الانظمة السابقة سعيا لاشبية فيه من اجل اشفاء اللمسة الانسانية التي حرمت منها تلك الشعوب طويلا، باسم «الموضوعية العلمية»، على اسلوب ادارة المجتمع في تلك البلاد، واذا كانت تلك التحولات تبدو في ظاهرها ثورة على التطبيق السعيئ لمبدأ نيبيل ، فانها في حقيقتها احتجاج على عناصر اساسية في المبدأ نفسه ، تفتح المجال واسعا أمام كل من يريد ساحة التطبيق.

لقد كانت «الاشتراكية الانسانية» توصف دائما بلاتها «حرفية». بل لقد بذلت محاولات لالقاء ظل من النسيان على كتابات هامة لكارل ماركس، ألفها في وقت مبكر، ليجرد انها تؤكد هذا الجانب الانساني

في الاشتراكية ، مع ان هؤلاء الذين تجاهلوا لم يكونوا يتركون سطورا واحدا لماركس دون أن يحلوه ويستشهدوا به. ووصل الامر ببعضهم الى حد النظر الى هذه الكتابات كما لو كانت تمثل المرحلة «الجاهلية» في فكر ماركس، قبل ان تهبط عليه «رسالة» الاشتراكية العلمية. وكم من اشتراكيين مخلصين طردتهم الاحزاب الشيوعية لمجرد انهم سعوا الى تطعيم النظرية بهذا الجانب الانساني. لقد كانت تدور داخل تلك الاحزاب عملية «تكفير» معاشة لما تجده لدى اشد الجماعات الاسلامية المعاصرة تطرفا، وكان الدفاع عن شكل من أشكال العريضة الليبرالية مكافيا لطرد صاحبه من الحزب، وهو ما يعنى الخروج من الجنة، والحكم عليه بان يظل مشردا منهوذا.

وقد ينتهز المعسكر الاخر الفرصة كيما يجتذب هذا المطرود او يستغل انتقاداته في دعائيه ضد خصومه، فيتمزق صاحبنا من الداخل ويظل عاجزا عن الانتماء، وتغمره السسرة الابدية وهو يرى التيار العام للمعسكر الذي يؤمن به يسير في طريق غير طريقه.

وانى لعلي يقين من أن جورباتشوف أو كان قد ظهر بأفكاره هذه في العهد الستاليني، أو كان قد جهر بها صراحة في «عصر الجمود» أيام برجنيف، لاتهم بأنه اكبر تحريف، ولكان الان مجرد ذكرى باهتة لسياسي معارض مدفون في سيبيريا، أو محكوم عليه بشغل وظيفة كاتب صغير في مزرعة جماعية نائية. ولكن من حسن حظ جورباتشوف - وحظ العالم - إن افكاره لم تظهر بكل ابعادها الانسانية والديمقراطية الا بعد أن أصبح مستقرا في الحكم ، قادرا على دعم هذه الافكار بكل الثقل الذي يضفيه الوجود في السلطة. ولعل في هذا تطبيقا آخر لتلك القاعدة التي يزخر عالمنا العربي بأمثلة صارخة لها، واعنى بها أن الفرق بين الحاكم الوطني حبيب الشعب وولى نعمته ، وبين العميل الخائن عدو الشعب والمعرض على الفتنة ، كثيرا ما يكون هو الفرق بين النجاح في الاستيلاء على السلطة والاختناق فيها

وإذا كنا قد توسعنا في الحديث عن هذا العيب الأول في النظرية الاشتراكية ، فذلك لأنه هو الأصل الحقيقي لمعظم الأخطاء الأخرى التي وقعت فيها تلك النظرية. فمن السهل ، مثلا ، أن ينتقد المرء منهج التفكير لدى معظم الماركسيين الكبار بأنه منهج «سلطوي» أكثر مما ينبغي. وأعني بالسلطوية أن كتابات ماركس وإنجلز، ومن بعدهما لينين، ينظر إليها كما لو كانت هي المرجع الأول والأخير في كل مشكلة تواجه الفرد أو المجتمع. ولابد لكي يثبت الكاتب أنه مخلص للايديولوجية، من أن تمتلئ كتابته بالهوامش التي تشير إلى اقتباسات من ماركس أو لينين. وكثيرا ما يشعر المرء بأن الاقتباس مصطنع، لا يقصد به إلا إثبات «ولامه» الكاتب، لأن الموضوع يتناول مشكلة مستجدة يستحيل أن يعمل مفكر في القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين، مهما علت مكانته، حسابا كاملا لها. (واست في حاجة إلى تتييه القارئ، في هذه الحالة أيضا ، إلى التشابه الواضح مع المنهج الفكري لكثير من منظري الحركة الإسلامية المعاصرة).

وليس هذا النقد مجرد خطأ منهجي له تأثيره على الميدان الثقافي فحسب، بل أن تأثيره يمتد إلى مجالات واسعة، إذ أن اتباع هذا الأسلوب يشجع النفاق الفكري ويجعل المتلقين هم الأقدر على التساق إلى قمة المجتمع. وهو تحول نون ظهور التجديد والابداع في ابتكار أساليب تتم بها مواجهة المشكلات في عالم سريع التقلب، ومن ثم فانه مسئول إلى حد بعيد عن كل ما تتصف به الفترات السابقة على جورباتشوف من جمود.

وأخيرا، فإن من أوضح العيوب النظرية في الفكر الاشتراكي السائد حتى عهد قريب، إفراطه في التنظير. لقد كان إخضاع الواقع المتغير لقوالب المستمدة من النظرية الماركسية سمة أساسية لهذا الفكر . وكان المبرد الذي يقدم لذلك هو أن من المستحيل على أية حركة سياسية أن تتجبع في ممارستها ما لم تسترشد «ببوصلة» فكرية تعلق بها على

مستوى الارتجالية والتخبط. والمبدأ في ذاته سليم، غير أن الإفراط في استخدامه كثيرا ما يؤدي الى نتائج عكسية. ففي حالات كثيرة لم تكن الأحزاب الماركسية تخطو خطوة واحدة الا بعد أن تقوم بتحليلات نظرية شاملة للموقف في ضوء النظرية الأم. وأعجب ما في الأمر أن هذه التحليلات كثيرا ما كانت تتناقض فيما بينها، فيصل حزب الى نتيجة معينة، ويصل حزب آخر، أو الحزب الأول نفسه في مرحلة لاحقة، الى نتيجة مضادة، إزاء الظاهرة الواحدة ، مستخدمين نفس المنهج، وكثيرا ما كان يتكرر هنا نفس الخطأ الذي لاحظته فلاسفة العصر الحديث على علماء اللاهوت في العصور الوسطى حين كانوا يجعلون من القوالب اللفظية حاجزا كثيفا يحجب عنهم عالم الواقع بكل ما فيه من ثراء وتغيير. بل أن بعض الشباب المنتهين الى حركات يسارية كانوا يقضون الليالي في التراشق برطانات لفظية وتقليب مجموعة من الكلمات الضخمة المحفوظة ذات اليمين وذات اليسار، ويخرجون من السهرة قريري العين ، متوهمين أنهم تمكنوا بذلك من تحليل الواقع المعقد وحل مشاكله.

هذا الاتجاه الى الإفراط في إخضاع الواقع للنظرية، بدلا من إخضاع النظرية للواقع ، كما ينبغي أن يفعل أى تيار سياسى يريد حقا أن يكون له دور فعال- يبدو لى ناجما عن الأصول الهيكلية للفلسفة الماركسية، وأرجو الا ينزعج القارئ من هذه الإشارة التى قد لا تكون واضحة لدى الكثيرين، ولكنى لن أطيل في هذا الموضوع الفلسفى المعقد، وكفى أن أشير إشارة عاجلة الى أن فكر ماركس، وهو أكبر بناء متكامل للفلسفة المادية، قد انبثق عن فكر هيجل الذى شيد أعظم بناء نظري متكامل للفلسفة المثالية، يخضع الكون والتاريخ والفلسفة والفن لآطار فكرى واحد. وكان لا بد أن يؤثر هذا الأصل فى تحديد المنهج الفكرى الذى يسير عليه ماركس والماركسيون، وأن يكون منهج الرجوع الدائم الى القالب النظري الجاهز ذاء مستحكما فى

الفكر الاشتراكي اللاحق، يمارس تأثيره ويترك بصماته يوضح على الممارسات العملية لمعظم التجارب الاشتراكية في الحكم.

ومن الطريف أن يقارن المرء بين هذا المنهج الفكري الذي سارت عليه التجارب الاشتراكية، وبين الأسلوب الذي تتخذ به القرارات الهامة في قلعة النظام الرأسمالي، أعنى في أميركا. ففي أميركا تسود فلسفة مضادة ، قوامها أن «ما ينجح عملياً هو الصحيح» (وهو المبدأ الأساسي في الفلسفة البرجماتية ، التي هي من حيث الاصل فلسفة أميركية خالصة). ويترتب على ذلك أن العقلية الأميركية لا تصروف في التحليل النظري، ولا تعبأ كثيراً بتفسير الأحداث من خلال قوالب مسبقة ، وإنما تعالج كل حالة على حدة، وتتصرف فيها تبعاً لمقتضياتها الخاصة، وتشكل نفسها تبعاً لكل موقف. وعلى حين أن الفكر الماركسي يسرف كثيراً في الحديث عن قوانين التاريخ، وعن حتمية التحولات الكبرى فيه، ويوصل في ذلك أحياناً إلى حد تغليب النظرية على الواقع المعقد المتجدد ، فإن طريقة التفكير الأميركية تتحلّى مع الواقع كيفما تشكل، وتكاد في التزامها بهذا الواقع أن تُلغى النظرية من الأساس.

ويؤدي الاسراف في الفكر النظري إلى الافراط في التنبؤ، فيبدو التاريخ وكأنه مراحل حتمية لا مفر من حدوثها. وعلى ذلك فكما انتقل التاريخ من مرحلة العبودية إلى مرحلة الاقطاع، ومن الاقطاع إلى الرأسمالية ، فلا مفر من أن تكون الخطوة التالية هي الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية الفالشيوعية. ويصور هذا الانتقال كما لو كان قدراً محتوماً لا فكاك منه، ويقنع الماركسي المتحمس نفسه بأن هناك قوة تعمل على الافراد والانظمة والحكومات، اسمها «حتمية التاريخ»، تعمل على دفع الأحداث في الاتجاه الذي تنتبأ به النظرية. وأية مقاومة لحتمية التاريخ هذه لن تكون لها من نتيجة سوى أن ترجئ المحتوم بعض الوقت، ولكن ما سيحدث لابد أن يحدث وعلى هذا الأساس ساد التفاؤل المطلق بين الماركسيين الاوائل في أعقاب ثورة ١٩١٧،



وكان منهم كثيرون ينتظرون اللحظة التي تسقط فيها الرأسمالية كالثمرة العطوية. ورغم تقلب الأحداث وتعدد الواقع وتجاوز إطار النظرية مرارا، ظل التفاضل هو النغمة الغالبة، حتى رأينا خروتشوف يهتف في وجه الرأسماليين الأميركيين في عام ١٩٥٦: «ستدفنكم» ويتنبأ من خلال تحليلات «علمية» مبنية على قوالب النظرية أكثر مما هي مرتكزة على معطيات الواقع، أن الاقتصاد في البلاد الاشتراكية سوف يلحق بالاقتصاد الرأسمالي في عام ١٩٨٠، ثم يتجاوزه بعد ذلك بمراحل. ويسجل هذا التنبؤ الخطير في وثيقة عظيمة الأهمية، هي أعمال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي.

كل هذا التفاضل كان مبنيا على تلك السمة التي أشرت اليها أكثر من مرة من قبل ، وهي تحليل التاريخ من طرف واحد ، هو الطرف الذي ينتمي اليه المحلل نفسه ، وعدم حساب ردود الفعل المتغيرة والمتجددة التي يقوم بها الطرف الآخر من أجل إفساد هذا التنبؤ وإبطاله . والاساس الذي يركز عليه هذا الخطأ المنهجي هو الاعتقاد بأن المرء يمتلك الحقيقة المطلقة ، وكل ما عداها تعريف أو انحراف أو بطلان صريح (هل هناك حاجة الى اشارة أخرى الى التشابه بين هذا الاطار الفكري وبين نظيره في الاسوعية الاسلامية المعاصرة؟) ومن هنا تأتي الثقة الزائدة بالنفس، لانه لا شيء يبعث على هذه الثقة بقدر اعتقاد المرء بأن التاريخ يسير لصالحه، أو بأنه يمثل في سلوكه ارادة التاريخ . ومادام يسير في الاتجاه الصحيح لحركة التاريخ، فماذا يغير لو حدثت أخطاء هنا أو تجاوزات هناك ؟ ولماذا يستعج الحاكم الى أصوات المعارضين أو يحترمه؟ ، مادام يعلم أن هذه الأصوات تعارض حتمية التاريخ ، التي يجسدها هو نفسه.

ولكن المارقة الساخرة تظهر في أن أولئك الذين كانوا دائما واثقين من امتلاكهم لقاصبة التطور، ومعرفتهم لاتجاه المستقبل، وتجسيدهم لحتمية التاريخ، هم الذين فشلت تنبؤاتهم، ولم تتحقق «حتمياتهم» على

حين أن أصحاب الايديولوجية المضادة، الذين يفكرون يوما بيوم،  
وحداتاً بحدائقهم، هم الذين تحكموا بصورة أكبر في مجرى التاريخ  
المعاصر. وهكذا كان الدرس واضحاً: من يقطن أن التاريخ حصان يمكن  
امتطائه، سيتهنى به الأمر إلى أن يمتطيه التاريخ.. تعقد الحياة  
المعاصرة لا يمكن استيعابه إلا بالمزيد من المرونة، والاعتماد من الصلابة  
عن «الصلابة». لأن التاريخ في نهاية الأمر ينقاد لمن يشكله، لا لمن  
يتشكل به.

أن سلسلة المآسي التي حدثت أمام أعيننا في أوروبا الشرقية إنما  
هي نموذج واضح كل الوضوح للاخطاء التي تتفاعل فيها النظرية مع  
التطبيق. فقد كانت في النظرية ذاتها ثغرات، حاولنا أن نكشف هنا  
عن بعض من أهمها، في التي فتحت الباب للاخطاء الفادحة في  
التطبيق. ولم يعد هناك مجال للقول إن النظرية تظل محتفظة بعصمتها  
وقصبيتها، وأن من يقبونها هم وحدهم المدسوسون. فلا مفر من العودة  
إلى الجذور، وإستئصال ما جف منها وما ذبل.

وفي تصوري أن جورباتشوف، الذي ينتمي إلى جيل لم يشارك في  
الأحداث الرائدة الأولى، ولم يفرق في جذليات الثورة العالمية أو الثورة  
المحلية، هو أول زعيم ينظر إلى الاشتراكية بوصفها هدفاً إنسانياً  
رحباً، يمكن أن يتخذ أشكالاً متباينة، ولا يتعين حصوه في قالب واحد.  
ومن المؤكد أنه أدرك أن العناد المفرط والثقة الزائدة التي كان يتصرف  
بها أولئك الذين كانوا يعتقدون أن «حتمية التاريخ» تعمل لصالحهم، هو  
الذي يمكن أن يقضى على التجربة من أساسها، فجميع تصرفاته تدل  
على أنه يدعو إلى إدخال عنصر المرونة في النظرية نفسها، إلى جانب  
العنصر الإنساني في التطبيق.

### هل ثبتت رؤية هلال الرأسمالية؟

في كل مجتمعات العالم تحدث تغيرات، وكثير من هذه التغيرات يسفر عن تحولات جذرية في بنية المجتمع. ومع ذلك فإن التغيرات التي حدثت خلال العام الماضي في بلدان الكتلة الشرقية هي التي اثارت اهتمام العالم بوصفها ايذانا بمرحلة جديدة في تاريخ البشرية، وهي التي حفزت الكتاب والمعلقين الى تجديد اقلامهم وحشد اذهانهم في محاولة للاقتداء الي معالم في ذلك الطريق الذي اصبحت العواصف تفلقه بالضباب من كل جانب. وربما كان أحد اسباب هذا الاهتمام، ذلك التماسك الشديد والصلاية الفائقة التي كانت تبدو عليها اوضاع الكتلة الشرقية. ولست اعني بذلك أن الانظمة الحاكمة في تلك البلاد كانت تستند الي جبهة داخلية قوية، وانما الذي اعنيه أن هذه الانظمة رتبت اوضاعها بحيث تظل متمسكة بالسلطة الى أجل غير محدد، واستبعدت منذ البدء آليات التغيير السلمي للجهاز الحاكم. ومن أجل هذا السبب بالذات، كان من الطبيعي أن تبدو أية محاولة لتغيير السلطة، كما حدث في الامة الاخيرة، انهياراً للنظام بأكمله.

لقد تعرض العالم الغربي في العقود الاخيرة من تاريخه لتحولات كثيرة، منها على سبيل المثال وقوف دول اساسية فيه، كفرنسا

واسبانيا، موافقا سلبيا من المشاركة العسكرية في حلفه العسكري  
الاكبر، حلف الناتو «شمال الاطلسي»، بعد ان حكمتها في السنوات  
الاخيرة احزاب اشتراكية ديمقراطية . بل أن العالم الغربي شهد حالات  
تحول من النظام الرأسمالي الى نظام ماركسي صريح ، كما حدث في  
شيلي عند فوز الليندي في أوائل السبعينات، وفي الولايات المتحدة  
نفسها ، شهد النظام الرأسمالي إنهيارا خطيرا خلال الازمة  
الاقتصادية الكبرى عام ١٩٢٩، وترتبت على هذه الازمة كوارث  
اقتصادية هائلة دامت سنوات عديدة ولحقت اضرارها جميع البلاد  
المرتبطة بالنظام الرأسمالي. وكانت أوسع التحليلات انتشارا تؤكد ان  
هذه الازمة ليست عارضة على الاطلاق، وانما هي تعبير عن خلل متاصل  
في بنية النظام الرأسمالي ذاته.

ومن السهل ان يدرك القارئ ان شيخ هذه الازمة مازال مشيما على  
العالم الرأسمالي حتي يومنا هذا.

بل أن ظهور الانظمة الفاشية والنازية في ايطاليا والمانيا واليابان  
واسبانيا في فترة ما بين الحربين العالميتين ، وكثير من نظائرها  
وامتداداتها في دول العالم الثالث منذ الحرب العالمية الثانية، هو في  
رأى الكثيرين تعبير عن أزمة هيكلية في النظام الرأسمالي، ومحاربة  
غير موفقة للخروج من إسار الازمة ، خلاصة القول ان مايمر به العالم  
الاشتراكي من مشكلات خطيرة ليس هو الحالة الوحيدة لظهور أزمة  
عميقة في هيكل نظام عالمي رئيسي. ومع ذلك فان الاذمان قفزت  
مباشرة، في هذه الحالة الاخيرة بالذات، الى استنتاج صريح هو ان  
التجربة الاشتراكية كلها قد أفلست، وانها لم تكن منذ البدء الا حالة  
عارضة او «وعكة» اسابت قطاعا من البشر وسرعان ما تزول ليعود  
العالم كله رأسماليا كما كان قيل ١٩١٧ . فلماذا يصدر المحللون  
احكاما كهذه الان ، بينما لم يقل احد (باستثناء بعض الماركسيين) ان  
بناء النظام الرأسمالي ذاته كان لابد ان ينهار بعد الكساد العظيم في  
١٩٢٩. أو أن الرأسمالية لابد ان تنفذ لانها افترت، بشكل مباشر او  
غير مباشر ، انظمة دكتاتورية كالنظمة هتلر وموسوليني وفرانكو  
وسالازار؟

أغلب الظن أن الرد على هذا التساؤل يكمن في تلك المرونة الهائلة  
التي تراجه يربا الرأسمالية أزماتها، وفي قدرتها الفائقة على إعادة  
التكيف بعد كل ملازق خطيرة تقع فيه، على حين أن الانظمة الاشتراكية

تجمدت وتحجرت الى حد يحدت معه وكائنها إما أن تحافظ على أوضاعها  
دون تغيير، وإما أن تنهار انهياراً تاماً.

وفى وسعنا أن نوضح الفارق بين الاثنين بالمقارنة بين كرة الطاولة  
(البنج بونج) والبيضة. فالأولى تقفز وترتد سليمة اذا اسقطت أو  
ضربت، والثانية تنكسر وتسيل بمجرد أن تصطدم قشرتها بأى جسم  
صلب. وبالمثل فكما أن الرأسمالية تستطيع أن تتخذ ألف شكل وشكل،  
وتظل مع ذلك رأسمالية، فإن الاشتراكية كما طبقت في أوروبا الشرقية  
لم تكن تستطيع التخلي عن طابعها الثابت والمتصلب إلا اذا عرضت  
بقاها واستمرارها للخطر.

وفى تصوري أن هذه الصمة بالذات كانت جزءاً أساسياً من خطة  
الإصلاح التي وضعها جورباتشوف وحرس على تطبيقها في دول أوروبا  
الشرقية ، ومهد لها بقبول هذه التحولات العنيفة. فلماذا لا تصبح  
الاشتراكية بدورها نظاماً مرناً، يقبل التطور ويتكيف وفقاً لمتطلبات  
العصر؟ ولماذا تحمل الفرنسيون والألمان الغربيون والأميريكيون مظالمات  
١٩٦٨ العارمة، التي شارك فيها الملايين من الطلاب والمهنيين والعمال،  
وظل نظامهم في أساسياته سليماً ، بينما تضطر الجيوش السوفياتية  
الى التدخل كلما حدث اضطراب واسع الأبعاد في أى بلد اشتراكي؟  
لماذا لا تتخذ هذه البلاد لنفسها آليات تسمح لها بامتصاص سخط  
الجماعير على انظمتها ، اذا ارتكبت أخطاء فادحة ، وتتيح لها تصحيح  
مسارها واكتساب ثقة هذه الجماعير من جديد؟

لماذا يسود دائماً هذا البديل الانتحاري: اما بقاء كل شيء على حاله  
بقوة السلاح، واما انهيار كل شيء؟ من المؤكد أن اعلان جورباتشوف  
الصريح أن جيوشه لن تتدخل لمساندة أى نظام يثور عليه شعبه،  
وإشاراته الواضحة الى أنه لن يؤيد القيادات الستالينية المتحجرة، بل  
ومشاركته الايجابية، على ما يقال- في إزاحة بعض هذه القيادات، مع  
ادراكه للنتائج الخطيرة التي يمكن أن تترتب على ذلك . وفى المدى  
القريب على الأقل ، بالنسبة الى وحدة المعسكر الاشتراكي وتماسكه-  
كل هذا دليل على أن سياسته تسعى الى أن تضعيف الى التجزئة  
الاشتراكية عنصراً هاماً تتفوق عليها فيه الرأسمالية تفوقاً ملحوظاً :  
وهو عنصر المرونة في اختيار الشعب للجهاز الحاكم، وتبنى آليات  
التغيير السلمي للحكومات، دون حاجة كسر القشرة المتصلبة، وبطبيعة  
الحال فإن الكثيرين قد هللوا وصفوا لهذا التحول الذي بدا في ظاهره

تراجعا خطيرا، وكان لسان حالهم يقول: ألم نقل لكم ان الاشتراكية  
ببعض زائفة ؟ هاهي ذي تقتبس اهم مبادئ الحكم والسياسة من العالم  
الرأسمالي، وتراجع عن طابعها «الشمولي». الذي كان اهم سماتها  
المميزة. لماذا يتبقى بعد ذلك من الاشتراكية؟ على أننا سنرجئ مناقشة  
الشرط الاخير من هذا السؤال ، واعني به: هل يتبقى من الاشتراكية  
شيء اذا اتبعت آليات التغيير الديمقراطي المعروفة في الرأسمالية-  
سنرجئ هذه المناقشة حتى الفصل التالي . اما الان ، فلزام علينا ان  
نناقش الشرط الاول، واعني به دلالة اقتباس الاشتراكية لمبادئ هامة  
تنتمي الى صميم التجربة الرأسمالية.

ان الحكم على موضوع الاقتباس هذا، يتبقى ان ينظر اليه في سياق  
اوسع ، تتامل فيه مليا تلك العناصر العديدة التي سبق للرأسمالية ان  
اقتبستها من النظام الاشتراكي. ذلك لان النظام الرأسمالي قد عدل  
هيكله مرارا ، وفي كل مرة كان يدمج في داخله مبدأ من المبادئ التي  
تنادي بها الاشتراكية، ولكن بعد تعديله بحيث يلائم اطاره العام .  
ولاشك أننا قرأنا كثيرا عن تلك الفوارق الهائلة بين الرأسمالية  
المعاصرة، وبين رأسمالية القرن التاسع عشر التي كتبها كارل ماركس  
بانهيائها، بوصفها مرحلة في التاريخ ادت مهمتها واصبح من  
الضروري تجاوزها الى مرحلة أخرى ، وفي معظم الاحيان يشار الى هذه  
الفوارق بوصفها دليلا على اخفاق تجربات ماركس عن انهيار  
الرأسمالية العتسى من جهة، وعلى قابلية الرأسمالية للتكيف والتطور من  
جهة أخرى. ولكن السؤال الحاسم في هذا الصدد هو: هل جاءت هذه  
التطورات الهامة من قلب الرأسمالية نفسها، اعني هل من طبيعة هذا  
النظام ان يطور نفسه بحيث يعطى العمال مزيدا من الحقوق، ويضمن  
لهم نصيبا. يقل او يزيد- من التأمينات الاجتماعية والصحية ، ويتبع  
في سياسته الاقتصادية والاجتماعية قدرا- يقل او يزداد ايضا- من  
التخطيط، الخ؟ الواقع ان التعديلات والتصحيحات التي ادخلها النظام  
الرأسمالي على مساره، كانت في جوهرها ردت فعل على وجود نظام  
مضاد..

وليس معنى ذلك ان الخوف من ذلك النظام المضاد هو وحده الذي  
دفع الرأسمالية الى تطوير نفسها، بل ان هذا التطور قد حدث من أجل  
قطع الطريق على أية دعوة الى شكل من أشكال الاشتراكية بين عمال  
البلاد الرأسمالية، وعن أجل تقديم نموذج يبدو في نواح كثيرة، أكثر

ازدهارا من النظام البديل، وإذا كنا قد توسعنا من قبل في الحديث عن سياق التسليح بوصفه وسيلة بارعة- وقائلة- ابتكرها النظام الرأسمالي من أجل إيقاف نمو الاشتراكية ، وقلنا ان التنافس في ظل هذا السياق كان أمرا استحالة على ماركس أن يعمل له حسابا في نظريته ، لأن ما تحدث عنه الآن ، اعنى قدرة الرأسمالية على تصحيح مسارها بتبني بعض مبادئ النظام الاشتراكي من أجل إسقاط دعوى الاشتراكية بأنها هي التي تمثل مصالح العمال في كل مكان ، كانت بدورها تطورا لم تعمل له النظرية الماركسية حسابا. فقد افترضت هذه النظرية ان الحركة الاشتراكية ستنتشط وتتمو وتجذب مزيدا من عمال البلاد الرأسمالية يوما بعد يوم، بينما تظل الرأسمالية علي ما هي عليه ، وتسعى الي امتصاص اكبر قدر من « فائض القيمة » من العمال ، لان الاقصى لا تمتلك الا أن تكون سامة. غير أن النظام الرأسمالي استطاع أن يواجه هذا الهجوم ببراعة ، وأن يطور نفسه في مواجهة انواع عديدة من الازمات ، وتخلي عن عناصر كثيرة من تلك الرأسمالية التي كتب عنها ماركس، ولكنه كسب في مقابل ذلك قدرة كبيرة على الصمود والبقاء.

والخلاصة إذن أن ما استعارته الرأسمالية من الاشتراكية ربما كان يفوق بكثير، في تنوعه واتساق نطاقه، كل ما يبدو أن الاشتراكية تستعيره الآن من الرأسمالية.

ومع ذلك فإن أجهزة الاعلام الغربية لا تصور ما يحدث الآن على انه مرحلة تصحيح فيها الاشتراكية مسارها، تماثل عشرات المراحل التي سبق للرأسمالية أن صححت فيها مسارها باستعارة عناصر من الماركسية ذاتها، وإنما تصوره على انه انتهاء وسقوط نهائي للاشتراكية. فإذا كانت الايديولوجية تسقط بمجرد أن تستعير عناصر أساسية من ايديولوجية أخرى، فلماذا إذن لم تسقط الرأسمالية العالية التي تحمل سمات أن يستطيع آدم سميث ، لو بعث حيا من قبره، أن يتعرف على رأسماليته التقليدية في سمة واحدة منها؟

إن الرأسمالية لو كانت قد تركت لنفسها، دون وجود ايديولوجية منافسة تملك تأثيرا دوليا كبيرا، وتمارس تأثيرها ايضا على الطبقات العاملة والمتخفة داخل الدول الرأسمالية ذاتها- لما سار تطورها في اتجاه تحقيق مصالح العمال ، كما يحدث بالفعل في البلاد الصناعية المتقدمة. وأبسط دليل على ذلك ما تعارسه الرأسمالية من استغلال بشع

للعمال والفلاحين الفقراء في بلاد العالم الثالث . فحين تفتتح إحدى الشركات متعددة الجنسية مصنعا في بلد فقير، تكون شروط العمل في هذا المصنع، وليس الأجور فحسب، أسوأ بما لا يقاس من نظائرها في مصانع البلاد المتقدمة. وحسبنا أن نشير هنا إلى الفرق بين مصانع شركة «يونيون كاربايد» في أميركا نفسها والمصنع الذي كان تابعا للشركة نفسها في الهند، حيث وقعت حادثة تسرب الغاز السام المشهورة في مدينة «بويل» منذ سنوات قليلة، وتساقط المئات من العمال وأسره كالأذاب، وواف أصحاب الشركة يدفعون عن أنفسهم يوقاحة أمام رأي عام عالمي ساخط، ويستاجرون أبرع المحامين حتى لا يدفعوا إلا أقل القليل من التعويضات لأهل البلدة المنكوبة. وكل مثل هذا عن أية مقارنة يجريها المرء بين أوضاع العامل الزراعي الأبيض في أية مزرعة من مزارع الجنوب الأميركي، وأوضاع العمال التعمساء الذين تقوم «شركة الفواكه المتحدة» بتشغيلهم بأبخس الأجر، وفي أسوأ الأوضاع، لكي تكسب هي الملايين من مزارعها في جواتيمالا وهندوراس وغيرها من جمهوريات الموز، التعيسة في أميركا الوسطى.

ولو أمعنا النظر في هذه المقارنة، لتبين لنا أن الفارق الوحيد بين الحالتين هو أن العمال لديهم في الحالة الأولى من الوحي ما يسمح لهم بالكفاح الفعال من أجل حقوقهم، فلا يجد النظام مفرا من إرضائهم. أما في الحالة الثانية فإن تعاسة العمال وفقرهم وأميتهم، وتعرضهم الدائم لبطش الأنظمة الديكتاتورية التي تفرضها الشركات الأميركية العاملة في أراضيهم، كل ذلك يجعل صوتهم غير مسموع، وما دام خطرهم ضئيلا فلماذا تهرق الرأسمالية نفسها بتحسين أوضاعهم؟

على أن الرأسمالية تعيش منذ أواخر عام ١٩٨٩ فترة ترتفع فيها معنويات انتصارها إلى السماء، ويتفزل فيها الكثيرون، وينادي الكتاب، الذين لم يكونوا يجرؤون حتى عهد قريب على الدفاع صراحة عنها، بأنها هي النظام الطبيعي للإنسان، أو هي النظام السوي، وكل نظام آخر هو انحراف لا بد، مهما طال الزمن أو قصر، أن تشفى منه المجتمعات التي يشاء سوء حظها أن تقع فريسة له. ولا مفر للمرء حين يجد أن هذا الغزل المكشوف قد تجاوز حدوده، من أن يعود إلى تذكير الناس بأبسط البديهيات التي يبدو أن انفجارات أوروبا الشرقية قد أفلتتهم الوحي بها.

إن المهللين للرأسمالية، بوصفها النظام الطبيعي الذي منه بدأ



عصرنا الحديث وإلى يومنا هذا ، يصقلون ابتهاجا لسقوط الامبراطورية الشيوعية . وقد أوضحنا في الفصل السابق ان كثيرا من العناصر التي انتهجتها المجموعة الشيوعية كان يستحق السقوط بالفعل ، وان انهيار ماركسيتها القومية امر لا ينفى ان يضاف له اي امتنان مستدير . ومع ذلك فافتنا نحن نتحدث في هذا الصدد عن «امبراطورية شيوعية» نستخدم الكلمة بمعنى مجازي ، على حين ان الرأسمالية كانت لها امبراطوريات بالمعنى الحقيقي ، والدموي ، وهي امبراطوريات لم تكف باخضاع شعوب العالم الثالث لهيمنتها ، وانما امتصت دماها طوال قرون عديدة ، وقتلت من ابناءها عشرات الملايين ، وخاصة في المناطق الجبلية والغربية كإفريقيا السوداء ، وأوقعت نموها وزرعت التخلف والاعتماد على الغير في مجتمعات كانت لها ، قبل العهد الاستعماري ، حياة كريمة مكتفية بذاتها الى حد بعيد .

هذه مديهييات معروفة ، ولكن المرء يجد نفسه مضطرا الى التذكير بها في مرحلة التزييف الفكري التي نعيشها في أيامنا هذه ، وفي زمن خروج الجردان من الجحور بعد بياض شتوي طويل ، فهل يكون من حقنا ، ونحن نمتلك الاستبداد الذي كانت تمارسه الانظمة الشيوعية الحاكمة على شعوب رومانيا او بولندا او المجر ، ان نحمل الي حد تنسي معه فظائع الاستعمار ، الذي هو الابن الشرعي للرأسمالية ، في الكونغو وكينيا واندوليا وفي القارة الافريقية ومعظم بلاد اسيا؟ هل من حقنا ان ننسى وجود امبراطورية اميركية بكل معاني الكلمة ، حتى عهد قريب ، هي اميركا اللاتينية؟ هل من حقنا ان ننسى ان الرأسمالية لا تزال حتى هذه اللحظة تمارس اساليب الاستعمار التقليدي في غزو الجيوش الجبارة لبلاد صغيرة مغلوبة على امورها مثل جرينادا وبنما حيث يتداخل القهر الاستعماري مع الاستغلال الاقتصادي مع استخدام عصابات المرتزقة مع فرض ابرشع انواع الدكتاتورية العسكرية؟ الحق ان المرء يحار في تفسير الامتصاص المفرط بالمصير الذي حل بأمريكا الشرقية على ايدي الشيوعيين ، والتجاهل التام لمصير بلاد العالم الثالث على ايدي الرأسمالية .

لا يكون ذلك راجعا الى أن الأوروبيين شعوب راقية ، لا يصح أن تهاون أو تظلم ، على حين أن الأفريقيين والاسيويين والأميركيين اللاتينيين ملوثون أو مختلطون ، لا تجوز عليهم الرحمة ، ولا تنطبق عليهم مواثيق حقوق الانسان؟

إن للمرء كل الحق في أن ينتقد بشدة الأوضاع الجائرة التي فرضتها الأحزاب الشيوعية على أوروبا الشرقية. غير أن الخطورة الحقيقية تكمن في القفز من هذا الانتقاد إلى الثناء العاطر على الرأسمالية . فهذه نقلة غير جائزة ، وخاصة بين شعوب العالم الثالث التي اكتوت وماتزاله بنار الاستعمار وتسلط رأس المال. وحقيقة الأمر أن الرأسمالية تظل ظالمة وغير إنسانية، بغض النظر تماما عما يحدث في الكتلة الشرقية.

لامفر في وقت تقيم فيه الرؤية وتغيب الحقائق الواضحة ، من أن نواصل التذكير بالبيدهيات. فالانظمة الشيوعية قد اخفقت في أن توفر لمجتمعاتها مستوي جيدا من الغذاء... هذا خطأ فادح بلاشك. ولكن أيهما أكثر شرا : ذلك النظام الذي يصل الخل والامعال فيه إلى حد العجز عن الوفاء باحتياجات أساسية للبشر، أم ذلك النظام القادر علي أن ينتج ما يفيض منه، ولكنه يحرق الحليب والزبد، ويلقي بفوائض المواد الغذائية إلى البحر حتى لا تنخفض أسعارها؟ اننا لانشير هنا إلى ما كان يحدث في اميركا أيام الكساد العظيم في أواخر العشرينات فحسب، بل إلى ماحدث في أواخر الثمانينات، وفي قلب السوق الأوروبية المشتركة، وفي الوقت ذاته الذي كان مئات الألوف فيه يموتون جوعا في القارة الأفريقية. ومع ذلك فإن هذا العيب في حالة النظام الرأسمالي، ليس ناجما عن سوء إدارة أو أي خلل طارئ، وإنما هو جزء من طبيعة النظام وآليات وبنيتة الاسامية.

هل نواصل التذكير ببيدهيات أخرى، فنقول ان الحريات، التي كانت ممكن الضعف في اسلوب الحكم السائد في المنظومة الاشتراكية كلها، ليست مكفولة في قلاع الرأسمالية إلى الحد الذي يتصوره نود القوايا الحسنة ، وأن هناك ضروريا من الازدواجية تشوه الصورة التي تبدو للسذج ناصعة البياض كازدواجية الرأسمالية التامة في جانب والبطالة واسعة النطاق في جانب آخر، وازدواجية السيطرة التامة للقوياء وعدم الامان للضعفاء ، وازدواجية منح الحريات في الداخل وسلب الحريات من الدول الواقعة تحت السيطرة في الخارج (تايلاند، الفلبين، الخ)... وازدواجية الابيض والملون، والمساواة النظرية في الفرص من ناحية، وأندام وجود تكافؤ حقيقي للفرص من ناحية أخرى؟

ولو اصبر المهللون للرأسمالية علي الفاء ذاكرتهم ، ونسيان التاريخ، والتغافل عن الكوارث التي انزلتها الرأسمالية بالعالم الثالث عامة،

والمصائب التي جرتها «بركات» الرأسمالية علي العالم العربي بوجه خاص ، لتروك قلعة الرأسمالية الكبرى في العالم المعاصر، بدلا منها، مهمة تنشيط ذاكرتهم وايضا وعيهم، فقد جاء الغزو الاميركي لنبها تنبيهها للغافلين، ويقدر ما تعي ذاكرتي من احداث سياسية علي مدي العقود الاخيرة ، فاني لم اسادف في حياتي تصرفا اغبى من هذا الغزو. ففي الوقت الذي كانت فيه احداث اوربوا الشرقية تصل الي درجة الغليان، وفي الوقت الذي بدا فيه للكثيرين ان اكتشاف عيوب فاسدة في ممارسات الانظمة الاشتراكية، وسقوط اقوى رموز هذه الانظمة، يعني ان الرأسمالية هي البراءة والطهارة. وفي المال والمصير . في هذا الوقت بالذات، تأيس الولايات المتحدة الا ان تذكر الغافلين بان الديمقراطية التي تسهر الرأسمالية علي حراستها لها ايضا انياب ومخالب (مع الاعتذار لروح الزعيم العربي الذي ابتكر هذا التعبير الهالغ)، وتتطوع بتقديم خدمة كبرى للايديولوجية المضادة التي كانت في هذه اللحظة بالذات تمر بأسوأ مراحل ازمتها ، وتتكفل، مشكورة- بتكذيب الاصوات التي انتهزت فرصة الازمة لكي تهتك الرأسمالية هي النظام الطبيعي للانسان ا فهل كان من المعتم غزو بنما لاسقاط نورديجا في هذا الوقت بالذات؟ وهل يساوي نورديجا الثمن الفادح الذي دفعته اميركا من سمعتها، والمكسب الذي هبط علي جورباتشوف من السماء في اخرج اوقات ازمت؟ خباء منقطع النظر، دون شك، ولكنه اذنا فائدة لا تقدر، لانه اعاد الي العقل الغافلة ازانها، وتبهيها الي حقيقة بسيطة عظيمة الهمية، هي أن خطايا أحد المعسكرين العالميين لا تعني أن المعسكر الاخر هو الفضيلة المسماة ، وهو الملجأ الاول والملاذ الاخير.

والحق أن كبريات الدول الرأسمالية في عالم اليوم لا تشارك هؤلاء «المعجبين» تفاؤلهم. فهناك نوع من القلق الخفي يستشسه المرء ثانيا تصريحات المسؤولين في هذه الدول وان لم يكونوا يكشفون عن بوضوح، حرصا منهم على ان يتركوا احداث اوربوا الشرقية تتفاقم الي اقصى مداها . ففرنسا تخشي من عودة الوحدة الي المانيا، ذلك الجار العملاق الذي اذاقها ويلات اربع حروب كبرى خلال القرنين الاخيرين. واوربوا الغربية ككل ترى الحل في مزيد من التوحد من أجل امتصاص خطر العملاق الالمانى ، ولكن انجلترا لا ترتاح الي وحدة «القارة». واميركا تشعر بان اوربوا الموحدة ستكون قوى منافسة لها،

وليست بالضرورة متحالفة معها، لاسيما وان التحالف العسكري قد فقد مبرر وجوده حين لم يعد هناك خصم عدواني يقوم الحلف من اجل مواجهته. وهكذا فان المعسكر الرأسمالي يشعر في داخله بأنه هو ذاته مقبل على تغيرات لا يستهان بها، قد لا تتخذ طابع العنف كذلك التي حدثت في أوروبا الشرقية ، ولكنها ستكون قطعاً عميقة الجذور.

فالرأسمالية بدورها لا بد ان تغير مسارها تغييرات حادة حتى تتمكن من مواجهة الاوضاع الجديدة في عالم منزوع السلاح. واذا كنت قد تحدثت من قبل باستفاضة عن نزع السلاح المادي ، وتأثيره الهائل، الذي بدأ يظهر منذ الآن في صورة شركات ضخمة للأسلحة تغلق أبوابها أو تسرح عمالها، فلنتذكر جميعاً أهمية نزع السلاح المعنوي. ان على الرأسمالية ان تعيد تكوين اوضاعها بحيث تلائم عصراً ان تعود فيه قدرة على انتقاد الاشتراكية بحجة انها عدوانية تكبت الحريات وتلغي فردية الانسان، مع ان هذا الانتقاد هو الزاد المعنوي الذي عاشت عليه الرأسمالية طويلاً، وكسبت بفضلها عدداً لا يحصى من الأصدقاء. ولكن ماذا سيكون حالها حين تفقد هذا السلاح بدورها، وحين تبدأ الايديولوجية الخصم في سلوك ذلك الطريق الشاق والطويل الذي يؤدي الي الجمع بين الاشتراكية والانسانية في مركب واحد؟

لاشك في أن لون الحياة أمام الرأسمالية لن يكون، كما يتصور الكثيرون، ودياً. فهي بدورها مؤهلة لتغييرات حاسمة في هياكلها الأساسية، ولكن هذا يتوقف بالطبع على مدى نجاح الايديولوجية المضادة في الجمع بين الاشتراكية والنزعة الانسانية، وهو موضوع بحثنا القادم.

## صورة المستقبل

العالم كله يتحدث اليوم عن مفاجآت غير متوقعة، ويرسم لعقد التسعينات صورة تختلف جذريا عن جميع العقود السابقة، بل يذهب البعض الى حد القول ان القرن الحادي والعشرين بدأ بالفعل منذ ١٩٨٩، مثلما بدأ القرن التاسع عشر مبكرا منذ الثورة الفرنسية في ١٧٨٩، وبدأ القرن العشرون متأخرا منذ الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤- وهي فكرة معقولة اذا أخذنا في اعتبارنا أن نقاط التحول الحاسمة في التاريخ البشري لا يتعين أن تتفق مع السنوات التي تبدأ أرقامها بأصفا . ومع اعترافنا بأن المستقبل يحمل في طياته مفاجآت كبيرة، وبأن التحولات الهائلة في الشهور القلائل الاخيرة تمثل بذرة خصبة لتغيير وجه العالم بأسره في المستقبل غير البعيد، فلماذا من الاعتراف ايضا بأن عناصر التغيير وعوامله الأساسية كانت موجودة من قبل ، وأن كان العالم قد تأخر كثيرا في ادراك ما تتطوي عليه هذه العناصر من دلالات .

لقد كان التصعيد العالمي للسلاح ، وبلوغ التهديد النووي والصاروخي أقصى مداه ، هو ذاته نقطة تحول كبيرى نحو إدراك عمق الشكل السائد في العلاقات الدولية . كانت صورة الموت الذي يمكن أن يلقي بظله الاسود على العالم كله في لحظة واحدة، هي ذاتها الدافع

الأكبر الى التثبيت بالحياة. وكانت الخطوة المنطقية، بعد أن أدرك كل من الجانبين أنه يستطيع أن يفنى الآخر ويفنى العالم معه في ثوان معدودات، هي أن يفكرا معا في أسلوب آخر للتعامل بينهما، يحل فيه التفاهم والوفاء محل المواجهة المخيفة.

ولكن أحد الطرفين كانت له مصلحة مباشرة في استمرار هذه المواجهة ، والطرف الآخر كانت له مصلحة مباشرة في الانتقال الي حالة التفاهم. وهكذا جاءت المبادرة من جورباتشوف، وكان أعجب ما في الامر أنه عرض هذه المبادرة على ريجان في الستين الاخيرتين من حكمه، وأرفع هذا الصقر المتصلب على التفاهم مع من كان يسميهم «إمبراطورية الشر» لتبدأ بذلك المرحلة الاولى في التنفيذ العملي لسياسة الوفاق والتعايش والتفاهم الايجابي.

لقد كان واضحا، قبل جورباتشوف بمدة طويلة أن الرأسمالية باقية، بل إن جوانب كثيرة منها تزداد قوة. وكان واضحا أن الهدف الذي تبنته ممارسات الحركة الاشتراكية بعد ثورة ١٩١٧ مباشرة، وهو استئصال الرأسمالية بالتدريج، وأحلال النظام الاشتراكي محلها، قد أصبح هدفا مستحيل التحقيق، وذلك في المستقبل المنظور على الأقل . ولكن الرؤساء المتعاقبين للاتحاد السوفياتي، على الرغم من ادراكهم هذه الحقيقة، لم يكونوا على استعداد لبناء سياستهم الرسمية على اساس الاعتراف بها . وكان الامر يحتاج الي قدر كبير من الشجاعة من أجل اعادة رسم السياسة العامة على نحو يتلاءم مع هذا الامر الواقع، وهذا هو الدور الذي اضطلع به جورباتشوف. بل انه لم يكتف بذلك، وانما أدرك أن المعسكر الاشتراكي هو المهدد بالخطر لو استمر على جموده، ولو استمرت الفجوة بين الشعارات والممارسات الفعلية على هذا القدر من الاتساع، ولو ظل حاجز عدم الثقة، والسخط المكتوم، يحول دون تحقيق أي تجاوب بين شعوب البلاد الاشتراكية وأنظمتها . ومن هنا جاء انقلابه الكبير على جميع السياسات السابقة.

إن الكثيرين يتصورون أن جورباتشوف يهدف الى تطعيم الاشتراكية بمبادئ مستمدة من ليبرالية الغرب الرأسمالي، كميبدأ حرية التعبير وحرية الانتخاب وديمقراطية التمثيل النيابي، الخ... ولكني أعتقد أنه أدراك حقيقة أساسية لم يدركها أسلافه، وهي أن هذه المبادئ ليست بالضرورية جزءا من النظام الفكري للغرب نفسه، ولاست بالضرورية متعارضة مع الاشتراكية، كما تصور الكثيرون. وانما هي جزء من

التراث الانساني بأهم معانيه. ولقد كان الاشتراكيون الملتزمون مضطئين حين هاجموا الديمقراطية السياسية باعتبارها نتاجا غريبا بحتا، ونظروا اليها على أنها جزء لا يتجزأ من آليات النظام الرأسمالية. ذلك لان هذه الديمقراطية اذا كانت قد عبرت عن نفسها تعبيرا واضحا مع مطلع العصر الرأسمالي، فلا ينبغي أن تظل هذه النشأة مرتبطة بها الى الابد. فحق الانسان في التعبير عن نفسه بحرية ، وحقه في أن يختار ممثليه عنه يتولون الحكم أو يحاسبون الحكام ويشروعون القوانين ، هذه الحقوق تعد مكتسبات عظيمة للانسانية كلها، حتى لو كان أصلها القريب راجعا الى الغرب الرأسمالي. ومن المؤكد أن جميع التبريرات التي قدمتها الاحزاب الشيوعية الحاكمة طوال العقود السبعة الماضية، من أجل عدم تطبيق هذا النوع الرفيع من الديمقراطية السياسية، كانت تبريرات زائفة ، تستهدف تثبيت شكل من أشكال الدكتاتورية ، سواء اكانت تلك دكتاتورية حزب واحد، أو فرد يعتقد أنه يجسد الحزب والدولة كلها في شخصه، مثل ستالين أو تشاروشيسكو أو كيم ايل سونغ.

ولكن، هل تستطيع الاشتراكية ان تظل صامدة لو أصبحت ديمقراطية مستندة الى اختيار شعبي حر؟ لو كانت التجربة قد اتجهت منذ البداية نحو تحقيق هذا الهدف ، وتمكنت من بلوغه، ولو جزئيا، وعلى مراحل، وبعد مواجهة كل ما يمكن أن يعترضها من صعوبات ونكسات، لكان الرد على هذا السؤال ردا ايجابيا بلا تردد. ولكن انتقال الشعوب الى اشتراكية غير ديمقراطية بعد أن جريت طويلا اشتراكية غير ديمقراطية، هو الذي يثير إشكالات ويعقد الموقف تعقيدا هائلا. ذلك لان ثقل الماضي وأخطائه الفاسدة يشكل عاملا هاما ينبغي ان يحسب له الف حساب. فالمسألة ليست مجرد اختيار مطروح أمام هذه الشعوب، وإنما هي مدى قدرتها على تصديق التحول الجديد، بعد كل احياءات التجربة القديمة ومن المتوقع ، انسانيًا ، أن تكون هناك ميل قوي الى تصفية الحسابات السابقة، وإلى القطيعة التامة مع الماضي، وأن يكون هناك اعتقاد راسخ لدى فئات واسعة من الجماهير بأن الاشتراكية غير قابلة للإصلاح ، أو بأن الجديد لن يكون جديدا بالمعنى الصحيح ، وبأن الوعود المستقبلية لن تتحقق مادام الذين يقدمونها ممن لا تربطهم أية صلة بالمهود الماضية.

وعند هذا الموضع نستطيع ان نفكر بوضوح اكبر. أبعاد المقامرة

التاريخية الكبرى التي يخبرها جورباتشوف. فهو يقامر اساسا على الدليمة البشرية، وعلى الزمن ، وكل من هذين العاملين يمكن ان يساعده ويرفعه الى عتات السماء. ويمكن ان ينقضى عليه ويخلق تجريته ويحولها الى مأساة مفعمة.

لنبدأ بالحديث عن مقاومته على الطبيعة البشرية. ان جورباتشوف لا يكف عن القول ان اهم عنصر في البيروسترويكا ، هو اعادة بناء الانسان قبل ان يكون اعادة بناء الاقتصاد او النظام السياسي. ومن الصعب في عالمنا العريى ان يأخذ احد تعبير «اعادة بناء الانسان» مأخذ الجد، بعد ان بذلته لفتنا السياسية المعاصرة الى حد لم يعد معه سوى تعبير انشائي لجوف لا يشير الى أى مضمون حقيقي، ولا يغير من الواقع شيئا. ولكن جورباتشوف يعنى بالفعل بناء انسان جديد يفهم معنى الحرية ويحرص عليها ، انسان غير نمطي وغير مقولب ، يستعيد ذاته التى كان نسيانها في سبيل مصلحة «الكل»، هو فضيلة الفضائل في ظل الاوضاع السابقة، فالاعتقاد بان البعد الاجتماعي يستنفد الانسان بأكمله هو اعتقاد غير صحي. ولكن الاعتقاد المضاد بأن على فرد ان يحقق مشروعه الخاص الى أقصى مدى ممكن، بغض النظر عن تأثير ذلك في الآخرين- وهو جوهر العلم الرأسمالي الاميركي- هو اعتقاد غير انساني. وعلى ذلك فان عملية اعادة البناء التي تستهدفها البيروسترويكا هي في صميمها استفادة للتوازن بين الدوافع الفردية والدوافع الجماعية في الانسان.

ويبدو أن جزأ أساسيا من رهان جورباتشوف يرتكز على اعتقاد صحيح من الوجهة النظرية ، وهو أن الانسان الذي عاش في ظل الاشتراكية متمتعا بالامان والضمان الذي يكفله له المجتمع، وأن كان مقتفرا الى الحرية والقدرة على المشاركة سياسيا واجتماعيا، سيشعر بأن أقصى أمانه قد تحلقت لو أضيف عنصر الحرية والديمقراطية الى عنصر الامان والضمان. ولكن هذا الرهان يفل ، من الوجهة العملية ، شيئين يمكن أن تكون لهما عواقب خطيرة: أولهما الرغبة المتعطشة في تصفية الحسابات مع الماضي، التي قد تصل الى حد الاعتقاد بأن الاشتراكية. مهما اتخذت من أشكاله غير قابلة للإصلاح: فهي أشبه بمجرم يستحيل أن تقبل توبته، لأن سوابقه أكثر وأندج من أن تسمح بالثقة فيه . وهكذا فان التهر الذي مرت به الشعوب الاشتراكية يمكن أن يجعل رؤيتها متجهة الى الانتقام من الماضي أكثر مما هي متجهة الى



بناء المستقبل.

ومن ناحية أخرى فإن رهان جورباتشوف على الطبيعة البشرية يفشل الجانب المادي فيها الى حد بعيد. فالرهان يتصب على الايمان بأن الشعب الذي مر بتجربة الاشتراكية ولكنه عانى خلالها من القهر، سيستمد بثقته بهذه التجربة بمجرد ان يزول عنه القهر، وإن يقبل العيش في ظل الرأسمالية مهما قدمت له من اغراءات غير ان هذا الرهان ربما كان ينطوي على نظرة مثالية أكثر مما ينبغي الى طبيعة الانسان. ذلك لان القرب الرأسمالي يراهن على الجانب المضاد، أعنى الجانب المادي ويركز على «الحرمان» الذي تعانيه الشعوب الاشتراكية من الماكولات والملابس والاجهزة الحديثة، الخ.. ولما كان من الصعب، في الحدي المنظور، ان توفر اصلاحات جورباتشوف مثل هذه السلع المادية للناس، فمن الممكن ان يؤدي ذلك الى خسارته للرهان والتي تراكض هذه الشعوب وراء «الرخاء» الرأسمالي.

وهذه مسألة لا يصح ان يستخف بها من يسعى الى تكوين رؤية مستديلة لما ستؤدي اليه بيرسترويكا جورباتشوف. ذلك لان الاغراءات المادية امر لا يمكن الاستهانة به في سلوك الجماعات البشرية. ولقد رأيت بنفسى مدى تعطش شيان وفتيات باعداد كبيرة في الاتحاد السوفياتي وبلاد اشتراكية أخرى الى اشياء تبدو في نظرنا تافهة، كالملايسر الجينز، والساعات الرقمية والمسجلات اليابانية ، الخ... ورأيت بنفسى كيف ان قطعة اللبان الاميركي او سيجارة اميركية يمكن ان تكون موضوعا للهفة الانسان في هذه البلاد ، وصحبت وقتها كيف لم يتمكن التعليم والتنشئة الاجتماعية من اقناع الناس بأن من الممكن الاستغناء عن الاشياء الصغيرة في سبيل الاهداف الكبيرة. ومازالت أذكر كيف ان معظم الضباط العرب الذين كانوا يتلقون نورات تدريبية في الاتحاد السوفياتي، كانوا يعيدون غير متعاطفين مع التجربة السوفياتية ، لماذا سئلوا عن السبب كانت اجابة الغالبية الساحقة منهم تتعلق بأمور مادية، كالسيارة او الملايس او أماكن اللهو والترفيه، ونذر أن تجد منهم من يحدثك عن انعدام حرية الفكر او تسلط الحزب الواحد او غير ذلك من الجوانب المعنوية.

ويمكن القول ان هذا الرهان على الجانب المعنوي او الجانب المادي من الطبيعة البشرية يشكل ساحة حقيقية لمركة تنور حاليا في الخفاء بين المعسكرين الكبيرين. ومن الغريب حقا ان الجانب الذي توصف

ايدولوجية بانها مادية، هو الذي يراهن على مستويات الانسان، على حين ان الجانب الرأسمالي محامي حما الروح» و «نصير الاديان» الخ، هو الذي تركز دعايته على ماتعانيه شعوب المعسكر الاشتراكي من نقص في الفواكه واللحم، وعلى طوابير الخبز، وما الى ذلك من مظاهر الحرمان المادي التي يستحيل على اي مصلح ان يوفرها لشعبه ما بين يوم وليلة، اذا كان قد آتى الي الحكم بعد مرحلة طويلة من التخطيط وسوء الادارة.

ولنتنقل الي الحديث عن العامل الاخر في مقاومة جورباتشوف الكبرى، واعنى به مقاومته على الزمن. فكل ما يراهن عليه جورباتشوف يحتاج الي وقت، ولو تصورنا ان الاصلاح الاقتصادي، مثلا ، يمكن ان تظهر ثماره في المدي القريب لكننا متفائلين الي حد السذاجة. ذلك لان الورق في نفقات التسليح لن يتم الا بعد وقت، وانعكاس هذا الورق ايجابيا على الاقتصاد يحتاج الي وقت اخر، وازالة اثار البيروقراطية والجمود وسوء الادارة وفساد النعم تستغرق وقتا لا يستهان به. ولذا فان اولئك الذين يكررون ليل نهار انهم لم يلمسوا في الاتحاد السوفياتي تحسنا في الانخفاض الاقتصادية خلال عهد جورباتشوف، لا يستهفون من ذلك الا خداع العالم، لانهم يعملون جيدا ان ثمار اتجاهاته الجديدة يستحيل ان تتطوّر الان، ويعلمون انه مازال في مرحلة خوض المعارك الضارية التي سيصبح في امكانه، لو كسبها، ان يضع الاسس لبناء اقتصاد افضل.

ومن جهة اخرى فان الاصلاح السياسي، وارساء دعائم الديمقراطية الحقيقية داخل اطار من الاشتراكية ، هو تجربة غير مسبوقة ، تحتاج الي ابداع وابتكار لانظير لهما. ونحن ننظر الى ارض الواقع سنجد ان تقبل الجماهير، في البلاد الاشتراكية، لهذا النوع من الاصلاح، يحتاج الي وقت، ولايد هنا من التمييز، كما قلنا من قبل ، بين رد الفعل في المدى القصير ورد الفعل في المدى الطويل. ذلك لان رد الفعل المباشر كان سلبيا الي حد بعيد ، وهذا امر يستطيع « أن يتوقعه اي مبتدئ في التفكير السياسي. فالجماهير المكونة لا بد ان تتفجر اذا ما تحورت من القوة التي كنت تكبتها، وقد اخذ جورباتشوف على عاتقه عملية التحرير هذه حين امر القوات السوفياتية بعدم التدخل، وفتح بذلك الباب امام ثورة الجماهير في اوربوا الشرقية.

ومن المتوقع تماما في المرحلة الاولى ان تكون ردود الفعل حذيفة،

وان تعمل الجماهير على محو كل ما يذكرها بالعهد السابق، ومن هنا كان تقييد اسم الحزب الشيوعي في بعض هذه البلدان ، وإلغاء النص الخاص بانفرادة بالسلطة في البعض الآخر، وظهور محاولات لعزل قيام أي حزب شيوعي في المستقبل . وهذا هو رد الفعل المتوقع، في مثل هذه الظروف، خلال المدى القريب، ولكن الأمور لابد ان تتغير في المدى الأبعد، ولابد ان يعود الاتزان الى عقول الناس، بعد ان ينفسوا من غضبهم ويصفوا حساباتهم ، فيبدأون في البحث عن مصالحهم الحقيقية . ولاشك في ان تجربة ازالة جدار برلين كانت لها دلالة خاصة في هذا الصدد. ففي البدء تدفق اللاجئين بعشرات الالوف، وفي نيتهم ان يرحلوا بك سهولة، ولكنهم بعد ان اطمأنوا الى ان الأوضاع الجديدة ستمتد، وان وطنهم وبيتهم لن يكون بعد ذلك مكانا للقمع وخنق الحريات ووشايات الأجهزة الامنية، عاد معظمهم الى بلدتهم، وبدأوا يشاركون في البناء الجديد.

ان الأوضاع التي تجتاح أوروبا الشرقية الان لن تدوم، ولابد ان يكون المستقبل شيئا مختلفا عن هذا الوضع المؤقت، وعن الوضع المهيمن السابق عليه. وليس في وسع احد أن يتصور أن بلدا مثل رومانيا ستعيش في ظل هذا التخطيط الذي جعل رئيس الدولة ينقاد لمظاهرة غاضبة محدودة العدد ، فيلقى الحزب الشيوعي، ثم يعود بعد يومين فيلقى الاستفتاء ، هذا اسلوب غرقاني في الحكم، يستحيل أن يوم طويلا، ولابد أن يبدأ الشعب نفسه في البحث عن مصالحه الحقيقية بعد أن تنتهى فترة تصفية الحسابات الماضية. ولكن هذه الفترة ستطاول من بلد الى آخر، ومن المتوقع أن تطول فترة الغضب تبعا لمدى ارهاابية النظام الذي كان سائدا في كل بلد على حدة وتبعا لقداحة الثمن الذي دفعه هذا البلد في الثورة على الأوضاع القديمة.

على أن من المهم الى أبعد حد أن نشير، في صدد الكلام عن عامل الزمن هذا، الى الزمان المضاد الذي يقوم به أولئك الذين لا يريدون للتجربة الجديدة أن تنجح، ذلك لان الوقت لو اتسع لكي تنجح تجربة الجمع بين الاشتراكية والديمقراطية في اطار واحد ، لكانت تلك التجربة خطرا ماحقا يمكن أن يتصف دعائم النظام الرأسمالي، في المدى الطويل، بهنوه تام، وبلا سلاح أو حرب، وفي تصوري أن الجمع بين الأمان والضمان الذي تحققه الاشتراكية، والحرية التي تحققها

الديمقراطية، حتى لو اقترن بمستوى مادي متوسط، ستكون له قوة جذب هائلة يمكن أن تؤدي مع الوقت الى غزو قلاع الرأسمالية في أوروبا على الأقل. هذا فضلا عن تدعيم الاشتراكية في نفس البلاد التي تبدي أشد السخط عليها في الآونة الحالية . ولاشك أن القوى المضادة لهذه التجربة تعي هذه الحقيقة جيدا ،ولذا نراها تسعى الآن بكل ما ملكته من قوة لكي تززع اسس هذه التجربة وهي لاتزال في مهدها، فأعداء هذه التجربة يدركون انهم، ان لم يضربوا محاولة إقامة اشتراكية ديمقراطية في اللحظة الراهنة، وهي لاتزال في موقف الضعف، فسيكون من الصعب عليهم المساس بها في أي وقت من المستقبل، بل سيكون من الصعب إيقاف مداهم حتى في معارقلهم الخاصة، ومن هنا كان الرهان المضاد هو: اهدم هذه التجربة الآن . قبل أن تصبح نموذجا مغريا للجميع! ومن أجل ذلك . كان من حق المرء أن يستنتج أن جورباتشوف لو صمد بتجربته هذه سنة أو سنتين أخريين، دون أن يحدث شيء يهدمها من أساسها، فلن تستطيع أية قوة أن تمس تجربته الجديدة التي ستكتسب عندئذ قوة جذب لاتقاوم.

ولنلخص ما توصلنا اليه حتى الآن من نتائج بشأن تلك المقامرة التاريخية الكبرى التي يقوم بها جورباتشوف . فنقول انه يراهن على قلب الجانب المعنوي في الطبيعة البشرية . وعلى الصمود سنوات قلائل حتى تتاح لتجربته فرصة الكشف عن إمكاناتها . على حين أن خصومه يراهنون على غلبة الجانب المادي في الطبيعة البشرية، وعلى تكديس المشاكل أمام التجربة الجديدة من أجل هدمها في أقرب وقت ممكن، أو على الأقل من أجل العيلولة بينها وبين تحقيق ذلك النجاح الذي سيكون مؤكدا لو أتاحت لها الفرصة الكافية. ولاشك أننا نقرأ كثيرا في هذه الايام عن رغبة العالم الغربي في مساعدة جورباتشوف . ومساندته لاصلاحاته، مما يولد لدى القارئ انطباعا بأن «الرهان المضاد» الذي اتحدث عنه هاهنا ماهو الا تعبير عن مخاوف ليس لها من أساس. ولكن هذه المساعدة والمساندة هي الوجه الظاهر لموقف الغرب، الذي تتقرر سياسته على مستويات متعددة . منها ماهو واضح مكشوف ومنها ماهو خفي مستتر ومن المؤكد أن الغرب مضطر الي تأييد جورباتشوف بعد تلك الشعبية الساحقة التي نالها بين الشعوب الغربية ذاتها، والتي يقول البعض انها فاقت شعبيته حتى لدى شعبه هو . ولم تكن تلك الشعبية مجرد رد فعل عاطفي . وانما كانت راجعة في المحل

الاول الى الرغبة المتأصلة في السلام، والخوف العميق من حالة الصراع المسلح التي تهدد العالم بالانفجار في أي لحظة ، والوعى المتزايد بالخطر التي تتعرض لها البيئة على مستوى كوكبنا بأكمله، وهذه عوامل ينبغي أن تعمل لها أية حكومة في الغرب ألف حساب.

ولكن لابد أن يكون هناك على المستويات غير المعلنة، خوف شديد من أن تتجح تلك التجوية التي يمكن أن تحقق حلما عجزت البشرية حتى الآن عن تحقيقه، وهو الجمع بين العدل الاجتماعي والحرية الانسانية في إطار واحد . ومن هنا فاني أؤمن بأن الرهان المضاد حقيقة واقعة.

ان الجميع يتحدثون الآن عن عصر جديد ستؤدي سياسة جورباتشوف الى دخول البشرية فيه، عصر تتوقف فيه الصراعات الداخلية بين الايديولوجيات، لتحل محلها صراعات ضد القوى المعادية للانسان أينما كان. هذا العصر، كما يقول معظم الكتاب، هو عصر تراجع الايديولوجيا، أعني أنه العصر الذي لن يكون للصراع بين الاشتراكية والرأسمالية فيه تلك الاعمى التي كانت له منذ بداية القرن العشرين على الاقل، وانما سينصب الاهتمام كله على ما هو أهم: مشكلات البيئة التي يظهر لنا في كل يوم بمزيد من الوضوح أنها لاتحل الا على نطاق عالمي، ومشكلات السلام العالمي ونزع السلاح، وهي بنورها مشكلات تمس مصير الانسان على هذا الكوكب، ولا يمكن أن يقتصر تأثيرها على هذا المعسكر أو ذاك، وأخيرا، مشكلات التكنولوجيا، التي يتيح التقدم فيها أمانا لم تكن تحلم بها البشرية من قبل ، والتي تهشركنا منذ الآن بعهد تنعم فيه بوفرة في الانتاج المادي ووفرة في المعلومات الذهنية على نحو كفيلا بأن يجعل عصورنا الحالية تبدو عصورا بدائية بحق.

هذه الاحتمالات الممكنة هي حديث الساعة في أيماننا هذه، وهي لم تعد أحلاما خيالية، بل أن تحقيقها بات في متناول أيدينا ، ووراءها أخذت تظهر أمام أعيننا من الآن. ومع ذلك فإنتى أجد نفسي في موقع الاختلاف مع أولئك الذين يتصورون ان عصر التعاون من أجل حل المشكلات ذات الطابع الكوني سيحل حتما محل عصر الصراع بين الايديولوجيات . ففي رأيي أن حلول هذا العصر، الذي هو بغير شك غاية يتمناها كل شخص يحترم انسانيته ، لن يتحقق الا اذا نجح جورباتشوف في تثبيت دعائم تجربته الجديدة، فمازال أماننا وقت قبل أن يكون في وسعنا التحدث عن يلوغ البشرية سن الرشد، وانتقالها من

مصراعات الاخوة الاعداء الي التكاثر من أجل مواجهة المشكلات  
الكونية، وار اخفقت تجربة جورباتشوف، لكانت نتائج النكسة بشعة،  
ولاصبحنا ابعد عن ذلك التعاون العالمي مما كنا في اي وقت مضى.  
وأنا على ثقة من أن القارئ يتعامل الان: حسنا ، ماضي احتمالات  
النجاح؟ هذا ، في رأيي، هو السؤال الصعب حقيقة. فلنكن نكون  
الاجابة ممكنة، ينبغي أن تكون المطبات كلها أمامنا، وأن تكون معقولة  
قابلة للحساب. ولكن يكفينا مثال واحد لكي ندرك صعوبة الاجابة عن  
هذا السؤال. فالاضطرابات بين الانرييجانيين والارمن، مثلا، تقوم على  
رواسب قديمة منها مافو عرقى، ومافو طائفى ، ولكن كلها رواسب لا  
عقلية يصعب حسابها، ومن ثم يصعب التنبؤ بها. ومثل هذه العوامل  
اللامعتلية يمكن أن تتدخل في أية لحظة وتشكل عقبة خطيرة في وجه  
التجربة الجديدة، وتثبت أن الطبيعة البشرية التي راهن عليها  
جورباتشوف مازالت تنطوى على عناصر ظلامية سوداء يصعب  
اخضاعها للحساب العقلي.

إن جورباتشوف يبدو لي احيانا قريب الشبه بإبطال التراجيديات  
الافريقية ، وكثيرا ما يبدو مهيدا بمأساة تحكيها قوى الشر التي لن  
تتنازل عن عالمها بسهولة. ولكنني أؤثر الانحياز الي جانب التفاؤل في  
معظم الحالات: ذلك لانه إذا ظل صامدا فسوف يكسب العالم الكثير،  
وإذا تهاوى فسوف تهاوى معه آمال عريضة نسجتها البشرية كلها حول  
عصر جديد تبلغ فيه الانسانية، لأول مرة، سن الرشيد .

# وأين العرب من هذا كله؟

إن الحقيقة الأساسية التي توصلنا إليها التخليلات السابقة هي أن تجربة جورباتشوف، أو اصطلاح الفرصة كما تحقق امكاناتها، لابد ان تؤدي الي كسر حدة الصراع بين المعسكرين، وزوال الهوس العسكري العالمي وقيام كل طرف من أطراف الاستقطاب الدولي بتنازلات أساسية، وحدث تغييرات حاسمة علي خريطة العالم، لا تقتصر على المعسكر الاشتراكي، كما هو حادث الآن، بل يمتد تأثيرها بعمق في قلب المعسكر الرأسمالي في المدى البعيد. صحيح أن النظامين سيحتفظان بقدر غير قليل من الاختلاف فيما بينهما، ولكن الذي سينزل هو ذلك الهدف الذي ظل كل منهما يتخذ غاية قصوى لاستراتيجيته ، وهو إزالة النظام الآخر والحلول محله، سواء بالقوة العسكرية أو بالضغط الاقتصادي أو بالتفلفل والتآمر وتآليب الشعوب. فلن تعود هناك علاقة «إما قاتل أو مقتول» بين الرأسمالية والاشتراكية. ولن يكون هناك إصرار على أن يسود العالم نظام واحد هو الذي يتمكن من الانتصار في نهاية الامر، بل سيسود المجتمع العالمي نوع من التعددية، مشابه لذلك الذي تحرص الدول الديمقراطية على وجوده داخل المجتمع الواحد. ولا يقتصر معنى هذه التعددية على التعايش بين الايديولوجيات المتبادلة ، بل إنها تعنى أيضا تعددا في مراكز القوى العالمية . فنعند

الآن يستطيع المعلقون السياسيون أن يلاحظوا إمكان ظهور مركز قوى فى أوروبا، التي يسعى جورباتشوف الى الاندماج فيها دون حواجز، يقف نداً أمام مركز القوى الاميركي، بينما يقابله في الشرق الاقصى مركز قوى خطير تمثله اليابان ومعها الدول الصغيرة ذات الثقل الاقتصادي المتزايد، مثل كوريا وتايوان وسنغافورة، أما الصين فمن الممكن أن تصبح مركزاً قائماً بذاته، بفضل وزنها السكاني الهائل، وذلك اذا نجحت في شق طريقها، ولو بقدر محدود، في عالم التقدم التكنولوجي. وكما يلاحظ القارئ، فإن مراكز القوى تقفز من اقصى الغرب إلى اقصى الشرق، وتمر على ما بينهما مرور الكرام. وما بينهما، هذا يشمل، بالطبع، منطقتنا العربية. فإين نحن من هذا كله؟ وما تأثير هذه التحولات الهائلة علينا ؟ ان موضوعاً كهذا ، يمكن أن يعالج من زوايا متعددة. وسوف نختار هنا، عامدين، بعض الزوايا التي نراها أساسية في الموضوع، على أن يتذكر القارئ أن هذا الاختيار تمليه اعتبارات ضيق المكان والزمان، وأن للموضوع أبعاداً أخرى عظيمة الأهمية، لابد أن يتصدى لها المفكرون العرب حتى يعينوا وطنهم على التاهب لمواجهة المتغيرات الهائلة التي سيأتي بها الغد القريب.

إن هناك انزعاجاً عاماً من تراجع الامتصاصات الخارجية للكتلة الشرقية ، وانكفائها الى الداخل في محاولة لاصلاح ما أفسدته سياسات جامدة، أوقفت نمو هذا المعسكر طوال عشرات السنين، ويمتد هذا الانزعاج الى سياسات التهدة والوفاق، التي تسعى الي تجنب أى احتكاك مع المعسكر الغربي، وتسارع الي تحقيق التفاهم معه كلما حدثت أزمة في المناطق التي كان المعسكران يتنافسان فيها من قبل . ولقد كان لهذا التنافس فوائده الواضحة بالنسبة الى العالم الثالث، إذ استطاع عدد من زعمائه أن يفتقروا لعبة الحصول على المكاسب من أحد المعسكرين من خلال تهديده بالتقارب مع المعسكر الاخر. بل إن مجرد وجود معسكر اشتراكي مناوئ للمعسكر الرأسمالي ، الذي تنتمي اليه جميع الدول الاستعمارية السابقة، كان في حد ذاته مكسباً كبيراً للعالم الثالث، إذا انه لولا وجود هذا المعسكر، ولولا اتخاذ موقف الترقب والمواجهة إزاء المعسكر الرأسمالي، لما كسب العالم الثالث معظم معاركه التحررية، وخاصة في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية . ففي موقف المواجهة واستعداد كل من المعسكرين لارسال 'صواريخه النووية من أجل تدمير المعسكر الاخر، استطاعت دول كثيرة في العالم



الثالث أن تنتهز فرصة الشلل المتبادل بين العاملين لكي تقفز بتحررها واستقلالها، فضلا عن أن المعسكر الاشتراكي ساندما بقوة لكي يحرم المعسكر المنافس من الامتيازات التي كان يجهنها من بسط نفوذه فيها

لقد شعر الكثيرون بالجزع من جراء انتهاء وضع المواجهة هذا، وحلول التقام والوفاق محله. وكان من العيب أن يعزبهم بعض المفكرين من لوى النزعة الانسانية العالمية بالقول ان مصالح الانسانية ككل يتبغى تقليبها على مصالح أية دول او مجموعة من الدول، وأن الوفاق والاتجاه الي نزع السلاح مكسب للانسانية كلها. ومن ثم ينبغي تقليبه على الفسائر التي قد تحدث لهذه المنطقة من العالم أو تلك، ذلك لان منطق المصالح لا يمكن اختلاؤه من العالم بين عشية وضحاها. ومن جهة أخرى فان أي وفاق يحدث بين الكبار ان يلغى الظلم والتفاوت والرغبة في تحقيق العدالة بين العالم الثالث.

وأبسط دليل على ذلك انه، في نفس اليوم الذي كان فيه الملايين يسافرون من ألمانيا الشرقية، يعد هدم جدار برلين ، وهو كما يبدو كمكسب كبير للمعسكر الغربي، كان ثوار السلفادور يهاجمون قصر الرئاسة ويتحركون كما يشاؤون في العاصمة، ويمرغون سمعة النظام الحاكم ، الذي يدافع عن مصالح المعسكر الغربي ، في التراب، وكان ذلك تزامنا رمزيا بالغ الدلالة.

وفي اعتقادي أن المنطقة العربية ستكون من أكثر المناطق تأثرا بتلك التحولات الضخمة التي تطرأ على العلاقات بين المعسكرين الكبيرين، بل أن نتائج تلك التحولات، بالنسبة إلنا ستكون مصيرية، ومن هنا فإن الامر يحتاج منا أولا الى فهم عميق لطبيعة الاحداث الحالية واحتمالاتها المستقبلية ، وثانيا الى استعداد لمواجهة التغيرات العاسمة المتوقعة في المستقبل القريب والبعيد، لا من منظور مصلحة الانظمة الحاكمة، كما يفعل الكثيرون في هذه الايام، بل من منظور المصالح الحقيقة للامة العربية، وقدرتها على أن تجد لنفسها مكانا وسط هذا العالم الدائم التجدد.

ان النغمة العامة السائدة بين المفكرين العرب ازاء هذه التطورات الاخيرة هي الكتلة الشرقية، وما يمكن أن يترتب عليها من تغيرات في السياسة العالمية، هي نغمة التشاؤم. ولهذا الموقف ما يبرره دون شك . خير أنني أستطيع أن أجد عنصرا ايجابيا واحدا على الاقل يمس

جانبها فاما من جوانب السياسة العربية على الصعيد الداخلي، وأعلى به انبثاق وهي عالمي حاد بأهمية الديمقراطية. وتأتي أهمية هذه المسألة من أن الفكر العربي كان يرتكب في هذا الموضوع خطاين أساسيين، أحدهما هو الاعتقاد بأن الديمقراطية فكرة غربية في الأساس، لا يصح أن نقتبسها في مجتمعاتنا إلا إذا أدخلنا عليها تعديلات أساسية وربما كان الأفضل في نظر البعض الاستغناء عنها كلية ، أما الخطأ الثاني فهو أن الديمقراطية تتعارض مع السعي إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وأن حاجتنا إلى العدالة هي الأساس، وأن المجتمع الذي لا يبدأ بتحقيق العدالة الاجتماعية ينتهي به الأمر إلى ديمقراطية زائفة ، فلتوقف قليلا لتحليل هاتين الفكرتين.

إن في أدبياتنا السياسية العربية فكرة شائعة مفادها أن مفهوم الديمقراطية نتاج للحضارة الغربية لا يصلح إلا لهذه المجتمعات، ومن العجيب أن كثيرا من فصائل اليسار الماركسي، واليمين الإسلامي، تتفق على هذه الفكرة، وكل ما في الأمر أن اليساريين يضيفون في أغلب الأحيان صفة «الليبرالية» إلى كلمة الديمقراطية ويربطون بينها وبين نشأة الفكر البودجوازي الأوديسي وظهور الرأسمالية في مطلع العصر الحديث على حين أن الإسلاميين يؤكدون الأصل الغربي «اليوناني» للفظ الديمقراطية، ويرون في هذه الفكرة نتاجا للحضارة الغربية منذ عهد أبعد بكثير، لأصلها يبله ويبن تراثنا الإسلامي ، وكل هذه المقدمات صحيحة بلاشك، ولكن النتيجة المستخلصة منها، وهي أن الديمقراطية لا تصلح إلا للمجتمعات الغربية، باطلة كل البطلان. وحسبي أن أذكر القارئ هنا بما قلته مرارا في مواضع أخرى، وهو أن كل الأفكار العظيمة في العالم يكون لها في البدء أصل معين ، وترتبط نشأتها ببيئة وظروف محددة، ثم تتجاوز هذا الأصل وتتعداه، وتصبح مكسبا للإنسانية جمعاء وقد أثبتت الأحداث الأخيرة أن الديمقراطية والحريات المرتبطة بها تمثل مطلباً أساسياً لمجتمعات تمر بتجربة مضادة للرأسمالية الليبرالية الغربية، وأن زعيم الشيوعيين الحالي في الاتحاد السوفياتي لا يرى أي تعارض بين التمسك بالاشتراكية والمفاضة بالحريات الديمقراطية، على عكس ما كانت تؤكد معظم فصائل اليسار في نول العالم الثالث، ولا بأس هنا من إشارة سريعة، قد تبدو خارجة عن الموضوع، إلى أحداث قريبة العهد، بحضرة الادعاء الآخر القائل أن العالم الإسلامي لاتلائمة الديمقراطية «المستوردة من الغرب» فقد

أثبتت الانتخابات الباكستانية التي انحصرت فيها بي نظير بوتو ابنة الزعيم الباكستاني الذي وصفته جميع التيارات الاسلامية بالعلمانية، ان ذلك الشعب المسلم لم يجد أي تعارض بين عقيدته وبين ممارسة الديمقراطية، بمعناها الانساني العام، وأنه حين واثقه الفرصة عرف كيف يختار بطريقة واعية ناضجة ، على الرغم من جميع الظروف الصعبة التي يعانيها.

أما الخطأ الثاني الذي كان الفكر العربي يقع فيه بشأن الديمقراطية، فهو الاعتقاد الذي شاع طويلا بأن هناك تعارضا بين الديمقراطية السياسية وما يسمى بالديمقراطية الاجتماعية، أو بين الحرية السياسية والعدالة الاجتماعية. فقد انتشرت بيننا فلسفة تنهاها «الميثاق المصري في أوائل الستينات، كما تبنتها بعض الأحزاب العربية ذات الاتجاه القومي، تؤكد أن الديمقراطية النيابية المرتكزة على الحريات المعروفة (حرية التفكير والتعبير والعقيدة، الخ...) تظل شعارا شكليا أجوف خاليا من المضمون، مادام المجتمع مفتقرا الى تحقيق العدالة الاجتماعية. فالشعب الجاهل ، الجائع، المريض، لا يعرف كيف يمارس حرياته أو يختار مثليه، بل أن ممارسته للديمقراطية تنتهي عمليا الى سيطرة اصحاب المال والأرض والنقود عليه، فتتحول تلك الديمقراطية آخر الامر الى خدعة ومزلة. هكذا قيل لنا، وعلى هذا النحو كانت تفكر الأجيال الوسطى والجديدة في عالمنا العربي. ولكن اذا لم يكن مثال باكستان الذي قدمته من قبل كافيا لاتناعنا ببطلان هذا الرأي، فإن أحداث أوروبا الشرقية تمثل تكلينا مدويا له. فمع كل عيوب الأنظمة الحاكمة السابقة في هذه البلدان، لا ينكر أحد أنها قدمت لشعوبها، في ميدان العدالة الاجتماعية، أضعاف ما استطاع أي حزب أو تحالف شعبي عربي أن يقدمه لشعبه.

ومع ذلك فإن هذه الشعوب ثارت مطالبة بالحرية والديمقراطية، وأسقطت أولئك الذين استغلوا باسم الاشتراكية ونشروا الظلم باسم العدالة، وطالبت بحقوق قانونية وبستورية انسانية، وأكدت بأبلغ تبصير أن كرامة الانسان لا تنفصل عن آدميته ، وأنها مطلب يستحيل التنازل عنه مقابل أية مكاسب مادية تزعم الأنظمة أنها تقدمها الى شعوبها. ومن هنا فاني أعتقد أن أحداث أوروبا الشرقية قد أسدت الى العالم العربي خدمة كبرى على صعيد المبادئ السياسية التي تطبق داخل المجتمع، لأنها دعمت الدعوة الى الديمقراطية، وأكدت أن مطلب الحريات

التي توصف بأنها «ليبرالية» يتجاوز حدود الثقافات والايديولوجيات،  
ولقدت المزايم التي راجت بيننا طويلا حول التعارض بين معارسة  
الحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية، وأكدت أن القيم الانسانية العليا  
تسير كلها جنباً الى جنب، ومن المستحيل أن يكون الثمن الذي يدفعه  
الانسان مقابل سعيه وراء احداها هو تنازله عن الاخرى.

ولكن هل تؤدي تلك التغييرات العالمية ، التي بدأتها أحداث أوروبا  
الشرقية، الى نتائج ايجابية معادلة على صعيد السياسة الخارجية  
العربية؟

الحق أن الصورة في هذه الحالة تبدو قاتمة، فهناك شعور جارف لدى  
العرب بأنهم فقدوا، بعد هذه الاحداث، حليفاً كان يسانداهم في وقت  
الشدة ، وبأن اهتمام السوفييات وبلاد الكتلة الشرقية سيتركز من الآن  
لمساعدنا على اصلاح الاوضاع الداخلية المتردية اولاً، ثم يتجه صوب  
أوروبا الغربية لتحقيق مزيد من الانتماج والتوحد معها، ويتجه الى  
أميركا لتهديئة أجواء التوتر معها، ولأنها الطرف الذي لاغناء عنه في  
عملية نزع السلاح ، أما الشرق الاوسط فربما آتي دوره في المراتب  
الاخيرة من هذه الاهتمامات.

وفي تصوري أن هذا الاحساس بخياع حليف قوي للقضية العربية  
له بالفعل ما يبرره، في ضوء الاستراتيجيات العالمية الجديدة للاتحاد  
السوفيياتي والمعسكر الاشتراكي ككله قبل أن نفكر في التكنيد بهذا  
الوضع الجديد، أو مهاجمة جورياتشوف الذي أدت سياسته الى هذا كله  
، ينبغي أن نسأل أنفسنا: هل كنا ، في أي وقت اسبقاً حقيقيين  
للاتحاد السوفيياتي والمعسكر الشرقي؟

الحق أننا لم نلتبه الى قيمة هذا الصديق وفائدته لنا الا بعد أن  
احسبنا أننا فقدناه، أو بسبيلنا الى فقدانه (تماماً كما يحدث في  
حياتنا الثقافية، حين نتجاهل الكاتب أو الاديب وهو يقدم اليها عطاءه  
السخي خلال حياته، ولانبداً الاحساس بقيمته الا بعد وفاته). ففي  
الوقت الذي كان فيه السوفييات يقدمون الينا اقصى ما تستطيع  
امكانياتهم تقديمه من المساعدات العسكرية مثلاً، وضعنا اسلحتهم في  
أيدي عسكريين جهلاء مخربين، فجاء عدونا عام ١٩٦٧ وجمعها كلها في  
صحراء سيناء، والحق بنا هزيمة عسكرية تاريخية، ومع ذلك القينا اللوم  
كله على « الروس » ، وسارت المظاهرات في أرجاء العالم العربي  
(بإيعاء من بعض الانظمة القائمة عنئذ) تهاجم السفارات السوفيياتية

وترجمها بالحجارة.

وعندما اعتدلت أوضاعنا العسكرية في ١٩٧٣ وألحقا بالعدو أول هزيمة حقيقية في تاريخه، لأسباب من أهمها نوعية الأسلحة التي حاربنا بها (كما اعترف الرسميون جميعا في المراحل الأولى من تلك الحرب)، انقلبنا عليه بمجرد أن تغير ميزان المعركة، وكانت الشهادة التي طلقنا عليها الـهزيمة الأخيرة هي أيضا «الأسلحة الروسية» وكانت القرارات السياسية المعادية للسوفييات، قبل المعركة وبعدها، استفزازية إلى حد لا يتحمله من له صبر أيوب. وهكذا لم نكن نحن أعداء حقيقيين للسوفييات في الوقت الذي كنا نلتفح فيه بالقصي ما تسمح له مواردهم المحدودة بتقديمه.

وكما كان العرب أعداء سيئين، لقد كانوا أيضا أعداء سيئين: فالمفروض أن العدو الحقيقي هو السياسة الأميركية المتعازة بالكامل إلى إسرائيل، ومع ذلك فيقدر ما كانت سياستنا الإعلامية تهاجم أميركا على المستوى الكلامي، كانت سياستنا الفعلية ترتقي في أحضانها وتتجاوز أهدافها انحيازًا يكاد يكون كليًا.

وعلى ذلك، لماذا كنا اليوم نتهاكي على ضياع التأييد السوفيياتي، وعلى استفراد أميركا بالمنطقة، فلماذا أن نعترف بأننا لم نكن نحمل ذرة من التعاطف مع من كان يصادقنا، أو ذرة من العداء لمن كان- ولا يزال- يعادينا، وأن سياستنا السابقة تجاه الصديق السابق لا تشفع لنا لديه الآن حين يجد نفسه مضطرا إلى إعادة النظر في أولوياته، ولا تدفع العدو (الذي يظل محبوبا مهما فعل) إلى أن يعمل لنا في استراتيجيته المستقبلية أي حساب جاد.

لقد حدثت متغيرات المعسكر الشرقي، وهي متغيرات ليست في صالحنا بغير شك، ولكننا قبل أن نلوم العالم ومتغيراته، ينبغي أن نوجه قدرًا كبيرًا من اللوم إلى أنفسنا. ويكفي أن نسان حالنا، حين نأسف على تراجع التأييد الذي كنا نلقاه من هذا المعسكر، بقوله كم من المصاعب تنتظرنا لو ضاعت منا المساعدات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي كنا نلقاها من هؤلاء الضيوعيين الأوفاداء.

وثمة ما هو أخطر من ذلك على صعيد المواجهة العربية الإسرائيلية. ذلك لأن القيادات الجديدة في أوروبا الشرقية تضم نسبة لا يستهان بها من اليهود، الذين قد يكون معظمهم متعاطفين مع الصهيونية، فوزير الخارجية المجري الحالية، جيولا هورن، يهودي لا يخفى عداوته للعرب

وهو الذي صدرت منه أولى التصريحات حول وجود عرب ضمن الشرطة السرية البغيضة لتشاوشيسكو. وهو الذي زار اسرائيل في أول رحلة رسمية له ورفض زيارة أية منطقة عربية أو التحدث مع أي زعيم فلسطيني. وزعيم الحزب في المانيا الشرقية الان يهودي. ودعاة الانفصال في ليتوانيا وأستونيا ولاتفيا يضمنون نسبة كبيرة من اليهود . وهناك لئلاصف ارتباط قوي في ألمان الاوربيين بين الكفاح من أجل الحرية والديمقراطية، وبين الدفاع عن اسرائيل. على أساس أن الليبراليين الحقيقيين يتعاطفون مع «الاقليات» المضطهدة (ألا لا تزال اسرائيل حريصة على نشر صورة «الاقليات المضطهدة» في وسائل الاعلام وأجهزة الثقافة العالمية، التي يسيطر الصهيونيون على جانب لا يستهان به فيها).

ولكن أخطر القضايا جميعا، بالنسبة الى العرب، هي هجرة اليهود السوفيات الى اسرائيل، وهي الهجرة التي يأمل الاسرائيليون منها أن تعوض الزيادة السكانية السريعة للفلسطينيين، أو ما يسمونه «بالقنبلة الديمجرافية» (السكانية)، والتي أتعشت آمال شامير في التمسك بالأرض المحتلة قبل ١٩٦٧ ويعددها ،الى حد جعله يصدر تصريحه الاستفزازي المشهور في ١٤ يناير الماضي عن عدم اهتمامه بآية حلول للقضية في الوقت الراهن لان هؤلاء المهاجرين الجدد في حاجة الى أرض جديدة واسعة. وخطورة هذه القضية لاترجع ايضا الى أن معظمهم سيكونون على مستوى علمي وتكنولوجي رفيع. فهم ليسوا مجرد «يهود جدد»، كيهود الفلاشا أو المغرب، وإنما هم قوة تدمية مضافة الى المجتمع الاسرائيلي، شديدة الخطورة على المجتمع العربي . ولست أدري كيف قبل السوفيات، في عهد جورباتشوف، معالجة قضية هجرة اليهود ضمن إطار مشكلة حقوق الانسان. فهل من الأمور المسلم بها أن من حق الانسان مغادرة وطنه الى بلد آخر معاد له، يخدم استراتيجيته العسكرية الأخر أعظم الخدمات؟ وهل من حقوق الانسان أن يتخلى أي بلد عن مواطنين انفق على تعليم كل منهم وتأهيله عشرات الألوف ، لكي يتلقاه بلد آخر جاهزا؟ والأهم من ذلك هل من حقوق الانسان أن تهاجر أعداد ضخمة من بلد معين الى بلد آخر من أجل إمداد حقوق انسان آخر، هو الانسان الفلسطيني، في وطنه وأرضه؟

ولنتأمل هذه القضية من زاوية أخرى. ان اختيار هؤلاء اليهود

السوفيات الهجرة الى اسرائيل بهذه الاعداد الهائلة ، دليل على فشل كبير في السياسة الداخلية السوفياتية. فمعنى ذلك ، ببساطة هو أن النظام قد أخفق طوال الاعوام السبعين الماضية في إدماجهم في وطنهم إنمادجا حقيقيا، بحيث يتوحد اليهود مع الاهداف العامة للمجتمع الذي يعيش فيه، مع احتفاظه بتراثه أجيال من اليهود قد ظلت، بعد قيام أكبر ثورة في القرن العشرين، تغلب صفة اليهودي على صفة المواطن، وبمجرد أن لاحظت لها فرصة، اختارت الهجرة الى أشد البلاد عدا للبلد الذي نشأت فيه ، والذي عاش فيه أبائهما وأجدادها. ولا جدال في أن هذا أمر بالغ الدلالة بالنسبة الى رفض الطوائف اليهودية الاندماج في أي وطن تعيش فيه، على الرغم من أن أمنية أية أقلية أخرى في مجتمع كالمجتمع الاميركي مثلا، هي أن تنصهر في هذا المجتمع وتتوحد معه. ولكن لهذه المسألة دلالة أخطر بالنسبة الى مجتمع خاض تجربة جديدة كل الجدة، هي التجربة الاشتراكية، وربي أجيالا على الولاء لفكرة الانسانية العالمية التي تتخطى حدود القوميات والطوائف ، ثم اكتشف في النهاية أن قطاعا هاما من سكانه يدين بالولاء لبلد رأسمالي يعد من ألد أعدائه، ولا يعترف بعبدا المواطنة، ولا يتراث الوطن أو تاريخه أو أمانيه، ولا بالاخوة الانسانية على المستوى العالمي، بل يطفى لديه الانتماء الديني الضيق والمقم بالاساطير على كل انتماء آخر!

ان كل متابع لتطورات الاحداث في السنوات الاخيرة يعرف جيدا مقدار الضغط الذي مارسه الاميركيون على السوفيات في الموضوع هجرة اليهود، ومدى المساومات والصفقات التي حاولوا عقدها معهم، من مساعدات اقتصادية وتجارية وتكنولوجية، في سبيل السماح بهذه الهجرة. ومع ذلك فإن اندراج هذه القضية ضمن قضايا حقوق الانسان ينطوي على اهانة للعقل البشري، ولكل قيم الانسانية والتنوير التي يفترض في أية ثورة اشتراكية أن تكون وريثة لها . ان المسألة كلها فضيحة على أعلى المستويات العالمية: فضيحة لكل التجربة السوفياتية السابقة، وفضيحة للرأسمالية الاميركية التي تصاوم من أجل اليهود بكل ما تملك من امكانات، وفضيحة للثقافة اليهودية التي يصفها أصحابها بأنها «انسانية»، مع انها أثبتت بالدليل القاطع انها متوقفة على نفسها، لا تعترف بوطن مهما كانت المشاكل عليها، لان وطنها الوحيد هو الاسطورة المريضة التي هي ذاتها اهانة للانسان

الحديث... وأخيرا، فهي فضيحة للعالم العربي الذي يقف صامتا أمام خطر مقبل يهون الي جانبهِ أي خطر تعرض له من قبل!

وقد يقال: وما الذي يستطيع العرب أن يفعلوه في موقف كهذا؟ ودي على ذلك هو أن صورة المستقبل، في هذه المنطقة، ستكون على الأرجح على النحو التالي: الاتفاق بين العسكريين يؤدي إلى تراجع نسبى في تأييد المعسكر الاشتراكي (إذا ظل متماسكا) للعرب (اسيما وأن مواقف العرب السابقة لا تشجع كثيرا على استمرار هذا التأييد) ولكنه لابد أن يؤدي أيضا إلى تراجع في تأييد أميركا لاسرائيل. ذلك لأن اسرائيل بالنسبة إلى أميركا، هي في جانب هام من جوانبها جزء من متطلبات الحرب الباردة: فهي وسيلة أميركا لضمان وجود قاعدة قوية فعالة في هذه المنطقة القريبة من الاتحاد السوفياتي، ولضمان تدفق البترول إلى الغرب، وعدم زحف الايديولوجية الشيوعية في اتجاه الجنوب، فإذا انتهت الحرب الباردة، لم يعد هناك ما يدعو أميركا إلى تحمل تلك المسؤوليات الجسام التي تقتضيها مساندتها لاسرائيل.

وهكذا يمكن القول أن كلا من الجانبين، العربي والاسرائيلي لن يجد السند القوي الذي كان يركز عليه من قبل، وسيكون عليه أن يعتمد على نفسه وعلى قدراته الخاصة، قبل كل شيء.

فالعصر القادم سيكون عصر تحمل المسؤوليات، لدى الطرفين معا، ولابد أن يعد العرب أنفسهم لذلك اليوم الذي سيكون عليهم فيه مواجهة اسرائيل بقواهم الخاصة، وهذا ينطبق بالطبع على اسرائيل بدورها، وإذا كانت اسرائيل قد قطعت أشواطاً أبعد منا في العلم والتكنولوجيا، وحسبت حساب اليوم الذي تضطر فيه إلى الاعتماد على ذاتها، فإن هذه الحقيقة تضاعف من مسؤولية العرب في أعداد أنفسهم لمواجهة عدو استيطاني لا حدود لشهواته التوسعية، فسوف ينتهى قريباً عصر «المواجهات بالثيابة»، وسيكون على كل طرف أن يدبر أموره بنفسه في مواجهته لعدوه.

ومع ذلك، فإن على الأمة العربية أن تعد نفسها في الوقت ذاته للكفاح في ميادين أخرى غير الصراع بينها وبين اسرائيل، فعلى الرغم من خطورة هذا الصراع، لا ينبغي أن نظل نرقص على الاتهام التي يعزفها لنا أعداؤنا، ففي عالم الغد مشكلات أخطر من الصراعات الإقليمية، لا ينبغي أن نغف إزاحها مكتولى الأيدي. وأضعف الإيمان، في عصر الحاسب الإلكتروني، والثورة الهائلة في المعلومات، وارتداد الكواكب البعيدة، هو أن يتبنى العرب قيم العقلانية والتنوير، ويطبقوها



في شتى جوانب حياتهم، ويكفوا عن تلك اللعبة السخيفة التي يربطون  
فيها عيونهم بعصاية سوداء. ويسيرون متخبطين وسط عالم تخلق عن  
لعبتهم وسار في طريق النور منذ قرون.

# الفهرس

٧.....	الفصل الاول: المقدمات
١٥.....	الفصل الثاني: لعنة التسليح
٢٥.....	الفصل الثالث: الخلل في الداخل
٣٧.....	الفصل الرابع: هل تصعد النظرية الاشتراكية؟
٤٩.....	الفصل الخامس: هل ثبتت رؤية هلال الرأسمالية؟
٥٩.....	الفصل السادس: صورة المستقبل
٦٩.....	الفصل السابع: وأين العرب من هذا كله

## كتاب الأهالي رقم ٢٥

يصدر في مايو ١٩٩٠

## الاسلام والعروش

الدين والدولة في السعودية

تأليف: د. أيمن الياسيني

ترجمة: سيد زهران

-٨٠-



## هذا الكتاب

يرى مؤلف هذا الكتاب- المفكر العربى المعروف د. فؤاد زكريا- أن الزعيم السوفيتى «ميخائيل جورباتشوف» قد أسهم فى تغيير عالمنا بأكثر مما أسهم به أى فرد آخر فى التاريخ المعاصر.

وهو يقول أن جورباتشوف يقوم بمقامرة من اكبر مقامرات التاريخ، وهى مقامرة محسوبة، قد تبدو خاسرة فى البداية، ولكنها ستنتهى فى رأيه بتراكم المكاسب..

ويراهن جورباتشوف فى رأى المؤلف على الطبيعة البشرية، التى تثور الآن على القمع والاضطهاد، وسوف تثور غدا على الظلم الاجتماعى والتفاوت الحاد بين الطبقات والتسلح الذى يهدد استقرار

ويحاول هذا الكتاب، تحليل عناء المغامرة الكبرى واحتمالاتها المعقدة خلال تفسير ما حدث وبُحث تأثير مستقبل العالم وخاصة الوطن العربى المغامرة باستخلاص توقعات عن العالم فى عقد التسعينيات!

والكتاب مغامرة فكرية من كاتب الى قارئ يملك عقلا حيا يريد ان يفهم ما يدور فى عالم اليوم.

Bibliotheca Alexandrina



0389383

